توفيق الحكيم

التعادلية

مع

الإسلام والتعادلية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا – ت ٩٢٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

تسألني ما هو مذهبي فى الحياة والفن ؟ ... وتقول : إنك قرأت كل كتبي وخرجت منها بعقيدة : هى أنها فى مجموعها تحاول تفسير «الإنسان» فى وضعه العام من الكون بزمانه ومكانه ، وفى وضعه الخاص من المجتمع بأجياله وبيئاته ، وأن هذا التفسير يدل على اتجاه ، يمكن وصفه بالمذهب ، لو كان فى المقدور استخلاص أسسه وقواعده ، وهو ما تسألنى أن أقوم به .

أعترف أنى سررت لقولك هذا ، وعجبت ... سررت: لأنى أحب القارىء الذى يستكشفنى ... وعجبت : لأنى لم أفكر حتى اليوم فيما فكرت أنت فيه ... ولعل السبب هو أنى أكره الفن الذى يبنى على مذهب ، ولا بأس عندى أن يبنى المذهب على الفن ... لأن الفن هو الكاشف الحر عن أسرار الكون ... وهذه الحرية فى الاحساس والشعور والبحث والتفكير كانت هى وسيلتى الأولى ... أما وقد

كتبت ما كتبت بهذه الحرية ، فإن المذهب الذى يمكن أن يستخلص من هذه الكتابات لا يضيرنى ولا يقيدنى ... وما دمتَ تدعونى أن أبحث عن هذا المذهب أو هذا الاتجاه بين هذه الكتب فان أحجم ... سأتحدث إذن على أساس فكرتك :

أولا :

وضع الإنسان فى الكون .

ثانياً :

وضع الإنسان فى المجتمع .

ما هو الإنسان أولا ؟ ... هذا سؤال قديم قدم التفكير الآدمى ... جديد ما بقى التفكير الآدمى فى هذا الكون ... فالإنسان — مضافاً إليه التفكير — يولّدان حتما هذا السؤال ... وما دام السؤال قد ألقى فلابد له من جواب ... وهذا الجواب هو كل ما تحاول صياغته ، فى أثواب متجددة جدة الأيام والليالى ، كل علوم الأرض وفلسفاتها وفنونها وآدابها ، وهذه المحاولات لايدرى أحد مصيرها ؛ لأن الجواب لا يمكن أن يكون قاطعاً ما دام السؤال غامضاً ... والسؤال غامض ؛ لأنه وليد أبوين غامضين ... وهما : الإنسان والتفكير ... وإذا كانت القرون تولى والسؤال يلقى فى كل يوم : ما هو الإنسان ؟ ... ما هو التفكير ؟ ... فهل نطمع فى حل نهائى لهذه الأسرار ؟ ...

ما أظن أحداً يأمل فى حلول نهائية أو إجابات قاطعة ... إنما المطلوب هو الاجتهاد فى الملاحظة والتفسير ...

كلٌ من زاويته ... وكل بوسيلته ... وكل بأسلوبه .

هذا كل ما نستطيع ... وهذا كل واجبنا ... ولا ينبغى أن نترك الوجود دون أن نلقى على أنفسنا السؤال : ما هو الإنسان ؟... وأن نحاول إيجاد تفسير ...

وهنا يدخل الفرض لمعاونتنا ... يجب أن نفترض حقائق نسلم بها حتى نستطيع السير فى هذا الليل البهيم ... ولولا الفرض فى الفلسفة والعلم لما كان هناك تقدم نحو أى تفسير لأية ظاهرة من الظواهر .

فلأفترض ــ مؤقتاً ــ أن الإنسان لا يحتاج إلى تعريف: إنه ذلك المخلوق المعروف لنا جميعاً ... الذى يعيش فوق هذه الكرة الأرضية .

ولأفترض ــ مؤقتاً ــ أيضاً أن التفكير هو حركة الوعى الذاتى فى اتجاه منتظم متسلسل : أى منطقى .

هــذا المخلوق المفكر الذى يسأل عن حقيقته ... ما صفاته ؟... أول صفة لا تقبل الشك ، هو أنه يعيش على هذه الأرض ... إذن لابد أن تكون بينه وبين الأرض

صلة ... أو مشاركة فى صفة .

ولكن ما هى الأرض ؟...

خرجنا من سؤال عسير إلى سؤال أعسر ...

فلنقنع بأهم صفة للأرض ... وهى أنها كرة وتعيش بالتوازن أو التعادل بينها وبين كرة أضخم... هى الشمس... فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس، أو ضاعت فى الفضاء .

التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض .

فهل صفة التعادل هى أيضاً الحقيقة الأولى فى كيان الإنسان ؟...

فلننظر أولاً كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادى ؟... إنه يعيش طبعاً بالتنفس .

ماهو التنفس؟... هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير... فإذا اختل هذا التعادل ؛ بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى ، طاغياً على الزفير ، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائراً على الشهيق ، وقفت حياة الإنسان ... فإذا تركنا التركيب المادى إلى التركيب الروحى ، وجدنا عين القانون .

فالتركيب الروحى الإنسان له هو أيضاً شهيقه وزفيره، فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور ... أو بعبارة أخرى: العقل والقلب .

والحياة الروحية السليمة هى أيضاً تعادل بين الفكر والشعور .

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو إلا اختلال فى هذا التعادل : إما بتضخم الشعور تضخماً يلغى إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر ، فيرتد الإنسان طفلاً فى أعوامه الأولى ... وإما أن يطغى الفكر ويكبت الشعور ، فترتبك أداة الإدراك فى الإنسان .

فالإنسان إذن كائن متعادل مادياً وروحياً ... وهو ليس وحده الذى ينطبق عليه هذا التعريف ... كل الكائنات التى تحملها هذه الأرض المتعادلة ، تتعادل هى أيضاً كأمها فى تركيبها ، تعادلا هو سر حياتها .

فالحيوان والنبات والجماد ... كلها تخضع لقانون « التعادل » فى تركيبها البيولوجى والكيميائى والطبيعى ...

حتى فى نظر العلم الحديث الذى غير معتقدات القرن التاسع عشر حول « المادة » ، وبين بنظرياته عن « المادة » و « المجال » أن ما نصفه بالمادة ليس سوى « الطاقة » مركزة تركيزاً شديداً ، كما أنه صاغ أيضاً القوانين الجديدة فى مجال الجاذبية بين جزيئات المادة ... والجاذبية هى أساس التعادل ... لأن الجاذبية تعنى وجود قوتين ... والتعادل يعنى المحافظة على بقاء القوتين ، دون أن تتلاشى إحداهما فى الأخرى .

ولنترك الإنسان من ناحيته المادية لرجال العلم ، فما يهم رجال الأدب والفن هى الناحية الروحية فى الإنسان ... وإن كانت الناحيتان متداخلتين أحياناً ؛ بل إن من الصعب — وخاصة فى نظر المعرفة الحديثة — فصل ما هو مادى عما هو روحى ... بل أصعب من ذلك إيجاد تعريف دقيق لمعنى كلمة « روحى » ... ولكن المقصود بالطبع هو المعنى الشائع فى الأدب والفن لهذه الكلمة ... المعنى الذى يراد به الإشارة إلى حياة الإنسان الفكرية والشعورية .

فإذا أراد الأدب أو الفن تفسير الانسان ، فإنما يعنى إلقاء الضوء على موقفه الفكرى والشعورى تجاه هذا العالم الذى وجد فيه ... عالم الزمان والمكان والماضى والحاضر والمستقبل والبيئة والمجتمع الخ ...

ووسيلة الأديب أو الفنان فى تفسير الانسان مغايرة لوسيلة العالم والفيلسوف ... فهو لا يلجأ إلى منهج بحث أو تحليل ... ولكنه يلجأ إلى موهبة خلق ومحاكاة .. فهو ينشىء صورة للإنسان ... أو على الأصح صورة لتفكيره وشعوره قد تحوى من السمات والصفات الظاهرة والخفية ما يعين العلماء والفلاسفة على استنباط الحقائق والقوانين .

على أن موهبة الخلق والمحاكاة لا تكفى وحدها للقيام بهذا التفسير والتصوير ، إذا لم تستمد غذاءها من جوهر العلوم والمعارف السائدة فى عصر الأديب أو الفنان .

ففكرة « أبى العلاء » أو « شكسبير » عن الانسان هى فى نفس الوقت انعكاس لما كان سائداً فى عصر كل منهما

من ثقافة ومعرفة ... ولن يصل الأديب أو الفنان إلى تحديد موقف الانسان فى زمانه وعالمه ومجتمعه وعصره إذا انقطعت صلة الأدب أو الفن بالعلوم والأفكار المحيطة به .

على أن مهمة الأديب أو الفنان ليست مجرد تصوير هذه العلوم أو تجسيد هذه الأفكار ؛ بل إن واجبه اعتبار هذه العلوم والأفكار مادة غذائية تنفعه فى بناء الإنسان من جديد ، بناء حراً ينبع وحيه من صميم موهبته الخاصة فى الخلق والملاحظة والمحاكاة ...

وعندما أقول المحاكاة لا أقصد تقليد المظاهر السطحية ؛ بل أقصد محاكاة الطبيعة فى قوانينها الخفية ، التى يستطيع الفنان اقتناصها بشبكة إحساساته الدقيقة .

تلك هى وسيلة الأدب والفن فى تفسير الانسان .

قم تسألنى بعد ذلك :

ما تفسير الانسان فى نظر الأدب والفن فى عصرنا الحاضر ؟ ...

هذا سؤال يحتاج فى الإجابة عنه إلى مجلدات ، تملأ بالآراء والمذاهب والاتجاهات التى شغلت الأذهان فى هذا القرن الأخير .

وليس هذا موضع الحديث فى ذلك ... فالمطلوب منى فى إجابتى هذه إليك أن أعرض تفسيراً للإنسان مستخرجاً من كتبى ... أليس هذا غرضك ؟ ...

لن أرجع إلى كل الكتب . . . ولن أسهب فى التفصيلات ... فما أنا بصدد بحث عام ... إنما أنا أبدى وجهة نظرى الخاصة لتكون نقطة بداية لمن يعنيه الأمر . . .

ماهو وضع الانسان العام فى هذا الكون كما تصورته؟ ...

هذا السؤال يستوجب التقسيم إلى مسألتين تعرضان دائماً فى كل عصر :

المسألة الأولى : هل الانسان وحده فى هذا الكون ؟...

المسألة الثانية : هل الانسان حر فى هذا الكون ؟ . .

الجواب عن هاتين المسألتين يترتب عليه تحديد تبعات الإنسان ، وتعيين مدى نشاطه ونتيجة كفاحه .

ولقد أجاب العصر الحديث فعلاً بأن الإنسان وحده لا شريك له فى هذا الكون ، وأنه إله هذا الوجود ، وأنه حر تمام الحرية ... وبهذا الجواب — الذى قضى على تعاليم الأديان — ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية ... وعلى الرغم من بقاء الدين فى كثير من البلاد المتحضرة ، ماضياً فى دعوته ، محافظاً على مظاهر قوته : إلا أن الناس جميعاً — حتى المتمسكين بالطقوس وروح النصوص — قد سيطرت عليهم النزعة المادية ، دون إدراك منهم ، لأن جو العصر كله قد تشبع بها تشبعاً لا تجدى فى صده النوافذ

المغلقة ولا الأبواب الموصدة . فهواؤه يتسرب إلى النفوس وهى لا تفطن ...

ما السبب فى ذلك ؟ ...

السبب واضح : وهو أن التعادل الذى كان قائماً حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ، أى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى ... فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وجدد وسائله ووسع آفاقه ، فى حين أن الدين وليد القلب بقى محصوراً فى أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الإنسانى ، تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى .

وباختلال هذا التعادل وقع العصر الحديث فى الجانب الأرجح ، ونجم عن ذلك خضوعه للنتائج المترتبة على سيطرة العقل وحده . ومنها حرية الإنسان فى هذا الكون تبعاً

لحرية فكره ، وإنكار كل ما لا يثبت بالبحث والاختبار . ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان أو وجوداً آخر غير وجوده ، فهو كائن وحده فى هذا الكون ...

وكان لهذا الاختلال فى التعادل نتيجته الطبيعية التى لا بد أن تلازم كل اختلال فى التوازن ... وهو القلق . فالقلق السائد فى النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب فى ميزان التعادل بين العقل والقلب ... بين الفكر والإيمان ...

وهذا الاختلال فى التعادل لا بد أن يصحح نفسه بنفسه على مدى الوقت ... وقد ظهرت فى هذه الأيام بعض الدلائل . فالعصر الحديث بدأ يزهد فكرة الإنسان الكائن وحده فى هذا الكون... فهو يتشوق حنيناً إلى أحد غيره... إلى كائن أرقى ...ولم يسعفه الدين بإطار جديد لهذه الفكرة التى جعل يحن إليها ... فبقى ينتظر ويأمل أن تتحقق المعجزة ولكن فى محيط العلم العقلى الذى لم يزل مسيطراً على فكره . وما الاهتمام بالأطباق الطائرة اليوم ، وأمل الناس

فى ان تكون آتية برسالة من عالم أفضل وكائنات أرقى إلاّ منفس عام يلطف الشعور الذى جف بجفاف المنبع الدينى ، ويريح الإنسان من قلقه ، ويخرجه قليلا من ضيقه بوحدته فى هذا الكون ...

هذا التعادل واختلاله بين العقل والقلب فى إطار مشكلة الزمن كان موضوع مسرحيتى « أهل الكهف » . كما أن هذا التعادل أيضاً واختلاله بين الفكر المطلق ممثلا فى « شهريار » والإيمان العاطفى ممثلا فى « قمر » متحركا فى إطار مشكلة المكان ودورته كان موضوع مسرحيتى « شهرزاد » ...

على أن لقلق الإنسان فى العصر الحديث سبباً آخر متصلا بأمنه المباشر ، فهو يخشى فى كل لحظة دماره المادى بيده هو نفسه . هـــذا السبب هو فى عين الوقت نتيجة من نتائج انتصاراته العقلية والعلمية . فهو قد أصبح قادراً قدرة مادية هائلة ساحقة ، يمكنها فى أى وقت أن تفلت من يده ، وإذا أفلتت فقـــد هلك ... هذه القدرة أو القوة لا يلجمها غير

حكمته ... وهو لا يضمن كثيراً هذه الحكمة . ومن هنا جاء قلقه .. قلقه على سلامته وكيانه . فهو يعيش من يوم إلى يوم ، فى هذا العصر الحديث ، ناظراً إلى ميزان التعادل بين القوة والحكمة ، بعين زائغة شاردة ...

هذا التعادل بين القدرة والحكمة ، وثباته واختلاله كان موضوع مسرحيتى « سليمان الحكيم » .

من كل ذلك تتضح وجهة نظرى فى قضية الإنسان ، فأزمة الإنسان فى هذا العصر هى عندى نتيجة اختلال فى تركيبه التعادلى ...

وعلى ذلك يسهل استنتاج جوابى عن السؤالين السابقين .

هل الإنسان وحده فى هذا الكون ؟... وهل هو فى هذا الكون حر ؟...

لم أنشر رأياً صريحاً فى هـــذا المعنى ، ومع ذلك فقد أصبح لى ، فيما يظهر ، رأى فى هذا الشأن ، لدى بعض النقاد الأجانب الذين يعنون عادة باستخلاص هذه الاتجاهات من

الآثار . فأغلبهم ذكر فى تعليقاته وبحوثه عن مسرحياتى العشرين التى ترجمت : أن الفلسفة المسيطرة عليها هى قدرة الانسان المحدودة أمام قدره ، وأن مصير الانسان عندى مرتبط دائماً بكفاحه أمام القوى غير المنظورة ... وشذ بعضهم عن ذلك قائلا : إن المعتقدات عندى قد تحررت من قدسيتها لتلبس رداء إنسانيتها ، ولكن الانسان فيها ظل قلقاً مهدداً بقوة خفية .

مهما يكن الرأى فالمفهوم مما كتبه هؤلاء أنهم استنتجوا من خلال مسرحى أنى على أى حال لا أؤيد فكرة وحدة الإنسان أو حريته المطلقة فى هذا الكون ...

وهذا ما لا أنكره...

فأنا أحس بشعورى الداخلى أن الانسان ليس وحده فى هذا الكون ... وهذا هو الايمان . وليس من حق أحد أن يطلب إلى الايمان تعليلا أو دليلا . فإما أن نشعر أو لا نشعر ، وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئاً ... وإن

أولئك الذين يلجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الايمان ، إنما يسيئون إلى الايمان نفسه . فالايمان لا برهان عليه من خارجه . إنى أومن بأنى لست وحدى ... لأنى أشعر بذلك ... ولم أفقد إيمانى ، لأنى رجل متعادل ...

ولكنى من جهة أخرى أفكر بعقلى ، لا لكى أدعم إيمانى بأنى لست وحدى ... بل لأعرض المسألة أمام تفكيرى بعيداً عن الايمان ...

هل يقبل العقل فكرة الكائن الأرقى ؟ ... أى الأرقى من الانسان ؟...

إن الحيوان حتى فى أعلى مراتبه لا يدرك فكرة الأرقى ... إنه يدرك فكرة الأقوى ... فالعالم بالنسبة إليه إما مخلوقات ضعيفة يتغلب عليها ، وإما مماثلة له فى القوة ، وإما أقوى منه يتحاشى مواجهتها ... والقوة عنده بدنية بحتة ...

أما الانسان فيستطيع بعقله أن يدرك فكرة الأرقى ... أى الأقوى ذهناً وروحاً ...

وهو يستطيع أن يرى فيما حوله آثار أعمال تدل على ذهن أقوى وروح أرقى ملايين المرات من ذهنه وروحه ... فما الذى يمنعه عندئذ من قبول فكرة وجود الأرقى ؟ ...

إن الحيوان قد قبل الفكرة فى محيطه المادى البدنى فتحاشى قتال الأقوى ... ومعنى هذا التحاشى هو إيمانه بوجوده ... فلماذا لايقبل الانسان الفكرة فى محيطه الذهنى الروحى ، ويؤمن بوجود الأرقى ؟...

إن عقلى يقر الفكرة ...

ولكنه لا يستطيع أن يصنع لها صورة جدية واضحة تتفق مع جلالها .

لأن العقل لا يصنع غير الصور التى تتمشى مع منطقه ، ومنطقه قائم على فروض ومشاهدات وملاحظات مما يقع فى نطاق اختباراته . فهو إذن لم يصنع للأرقى غير صورة لما يعرف ، مجسمة غاية التجسيم فى عرفه ونظره ... وهذا

لن ينتج غير صورة مشوهة تهبط بالفكرة ... ولعل هذا سبب من أسباب الإلحاد .

فنحن نسأل العقل أن يصنع لنا صورة لله فيخفق ، فبدلا من أن نضحك ونهزأ بالعقل ، نضحك ونهزأ بفكرة : الله ! ...

فلنؤمن إذن بالقلب وحده ... تلك قوته . ولندع العقل يفكر فى مجاله وحده ... تلك أيضاً قوته ...

وهـــذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الانسانية .

بقي أن أجيبك : هل الإنسان حر فى هذا الكون ؟ ...
ما من جواب يمكن أن نتلقاه إلا من القوتين المنوط بهما
مهمة الادراك والوعى ؛ وأعنى العقل والقلب ... كل منهما
يجيب على طريقته وبأسلوبه ووسيلته ... فالعقل قبل أن يبدى
رأيه سيبحث ويلاحظ ويقارن ويستنتج ، سينظر إلى الطير
وهو يبنى عشه هذا البناء المحكم ، وإلى النحل وهو يقوم
بأعماله العجيبة فى الخلية، ويتساءل : فى أى مدرسة يتعلم الطير
والنحل هذه الأعمال البارعة ؟ فتجيبه الملاحظة : إن الطير
والنحل وأكثر الحيوان والحشرات لا تتعلم ولا تتدرب ،
ولكنها تولد وفى أعماقها هذه المعرفة المخزونة فيها — تلك
التى تسمى « الغريزة » - فتدفعها دفعاً وتحركها تحريكا لصنع
الأعاجيب ... عندئذ يتساءل العقل : والانسان ؟
اذا يولد ولا يستطيع هو أيضاً أن يبنى بيته الجميل ويغرس

بستانه الرائع بغير تعليم ولاتدريب ؟... ما بال الانسان يولد عاجزاً حتى عن المشى والكلام ولايختزن فى جوفة حضارته كالنحل والنمل ؟ — ما باله يولد متروكا لنفسه ، مجرداً من الغرائز الإنشائية، محتاجاً إلى اكتساب معارفه بنفسه خطوة خطوة ؟ ...

نعم ... الحيوان يولد مكبلا بالمعرفة المتحجرة أى الغريزة ، والإنسان يولد مجرداً ... أى حراً ! ... وعليه هو أن يكتشف المعرفة من جديد ، فى كل مرة يولد ... إن المعرفة المتحجرة عند الحيوان ، تلك التى تولد معه ، هى معرفة مفروضة عليه فرضاً ، لا يستطيع أن يتجنبها ولا أن يحيد عنها ولا أن يبدل أو يغير فيها ، ولا أن يجدد فى لبها أو شكلها ... إن خلية النحل هى خلية النحل منذ وجد وإلى أن ينقرض ... وليس فى مقدور النحل أن يصنع خلية على صورة أخرى ، أو يمتنع عن صنعها عامداً ، أو يعيش ليصنع شيئاً آخر ...

تلك هى الجبرية التى لا حرية معها ...

أما الإنسان فلم يفرض عليه نوع من المعرفة يقيده ويكبله ويجبره على صنع شيء بعينه طول حياته ، على نحو خاص لا يملك أن يتجنبه أو يغيره أو يحيد عنه ... إن النحلة تولد وهى تعرف بالضبط ماذا هى صانعة فى حياتها لأن مهمتها معروفة محددة ...

أما الطفل فيولد ولا أحد يدرى ماذا هو صانع فى حياته ... لأن مهمته ليست معروفة ولا محددة كمهمة النحلة والنملة ... بل إن سلوكه فى الحياة هو الذى سيحددها ...

يستنتج العقل إذن من هذه الملاحظة والمقارنة أن الجبرية التى فرضت على النحل والنمل لأداء عمل معين على وجه معين ، لم تفرض على الإنسان الذى ترك حراً يواجه مصيره ...

ولكن هذه الحرية التى تركت للإنسان ، هل هى مطلقة ؟ ... هل هى مقيدة ؟ ...

ربما استطاع العقل أن يوافق بلسان العلم — وهو أحد مولوداته وأدواته — على أن حرية الانسان مقيدة ، قياساً على حرية الحركة بالنسبة إلى المادة ... فقد قال لنا « نيوتن » ومن قبله « جاليليو » : إن الجسم المتحرك يظل يتحرك فى اتجاهه إلا إذا تدخلت فى ذلك قوى خارجية ... ذلك قانون القصور الذاتى المشهور بالنسبة إلى المادة ، وقد يصح أيضاً بالنسبة إلى حرية الانسان ... أى أن حرية الانسان تظل تتحرك فى اتجاهها ، إلا إذا تدخلت فى أمرها قوى خارجية ...

وهنا ينبغى أن نسأل العقل أو العلم هذا السؤال المعضل ما هى هذه القوى الخارجية ؟ ...

فى نظر القلب أو الإيمان الجواب بسيط ... ولكن العقل سيحاول أن يبحث عن الجواب فى عالمه المادى دائماً ... أى أنه سيتحاشى الاقتراب من منطقة الشعور الآدمى الداخلى الذى لا يعلل بالمنطق ... سيقول العقل

إن القوة الخارجية هى مجموع الإرادات الأخرى المتعارضة أو المقاومة ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة ... وسواء كانت فى مجتمع معقد أو مجتمع بسيط .

وقد يلجأ العقل إلى العلم ليعقد المقارنات بين قضايا انحراف الإبرة المغناطيسية ، وبين انحراف الإرادة الانسانية ، وقد يشبه مجال حركة الإنسان فى مجتمعه بالمجال الكهربى المغناطيسى فى المادة ، ليخرج من كل ذلك بتفسير يقبله منطقه المادى للقوى الخارجية المؤثرة فى حركة الحرية البشرية ...

وقد يقتنع العقل ... وحتى إذا لم يقتنع فهو سيمضى يتصيد الأدلة والبراهين داخل نطاق عالمه المعهود ...

أما القلب فهو مقتنع بغير دليل ولا حاجة إلى الأدلة فى عالم القلب والإيمان ... لأن الدليل هنا مفسد للاقتناع ... بل ان الاقتناع نفسه ليس من وظيفة القلب ... لأن معناه أنه جاء بعد شك ... والقلب لا يشك لأنه لا يفكر ....

إنه يشعر ... إنه فجأة يضيء كمصباح الكهرباء ...

فالقلب الإنسانى يشعر أحياناً شعوراً لا تعليل له بأنه ليس وحيداً ولا حراً فى هذا الوجود ... ألا يحدث أحياناً أن تشعر كأن شخصاً ما فى مكان ما ينظر إليك ؟... فإذا رفعت رأسك وبحثت وجدت فعلاً أن شعورك صادق! ... ألم تلاحظ مرة أو مرتين فى حياتك أن حادثاً معيناً وقع لك فى ظرف معين فغيّر مجرى حياتك على وجه معين؟ ... وتحاول أن ترد ذلك إلى المصادفة فتعجز ، لأن تلك الإرادة الخارجية تدخلت بصورة منظمة منسقة تنم على وعى يعقل ما يفعل ويعنى ما يريد ، لإحداث نتائج مقصودة بالذات ، ما كانت تحدث لولا هذا التدخل الذى لم يكن متوقعاً ؟... إرادة خارجية لها كل عناصر الإرادة الرشيدة الذكية تهبط على إرادتك العادية فتغـــير اتجاهها وترسم لها طريقاً جديداً ! ... إن عقلك أحياناً مهما يبلغ فى منطقة من الصلابة والدقة ، ليأبى أن يخضع مثـــل هذا الحدث للتفسير العقلى

المعتاد بالسهولة المعتادة ...

إن المناصرين للعقل والعلم يكتفون فى مثل هـذه الحالة بهز رؤوسهم ! ...

أما المكابرون والمتعصبون فهم ماضون فى الإنكار ؛ لأن العقل وحده عندهم هو الإله ...

أما أنا فأعترف بالعقل والعلم وحرية الانسان ... ولكن لا يمكن أن أنكر القلب والإيمان ... إنى لا أعيب على العقل أن يشك .. لأن وظيفة العقل هى الشك .. أى الحركة .. فإذا انقطع عن الشك فى بحوثه وقوانينه ، ووقف عن الحركة فى تقليب الحقائق والنتائج فقد شل عمله وانتهى أجله ...

أما القلب فوظيفته الإيمان : أى الثبات ...

فلنترك للقلب إذن أمر تلك الحقيقة الثابتة التى تستعصى على كل حل وتستبهم على كل تعليل ...

موقفى إذن من حرية الإنسان هو الآتى :

الإنسان عندى حر فى اتجاهه حتى تتدخل فى أمره قوى خارجية أسميها أحياناً القوى الإلهية ... حرية الإرادة فى الإنسان عندى إذن مقيدة ، شأنها فى ذلك شأن حرية الحركة فى المادة ...

والحرية المقيدة فكرة لا تروق لأكثر الأوروبيين اليوم لأنهم — كما قلت — قد ثقلت بهم كفة العقل والعلم والفكر التى تئول به الإنسان وحده فى هذا الكون ...

وقد تجلى ذلك فى تعقيب أولئك النقاد الذين أشرت إليهم ... فقد رأى أحدهم أن موقفى وإن كان لا يتعارض كثيراً فى أحكامه النهائية مع ماجاءت به الأجيال العصرية ، إلا أنه يعبر عن عقيدة تهزأ بها أوروبا بغير حق — كما قال — ؛ هى مأساة الحياة كما تتكشف عن عجز الحرية الإنسانية ... على أن الحقيقة التى أحب أن تستقر فى وضعها الصحيح هى أنى « تعادلى » أى أن إرادة الانسان فى كفتها تعادلها الإرادة الإلهية فى كفة أخرى ، والعقل البشرى فى كفة

يعادله الإيمان ، كفة ...

بهذا التعادل يعيش الإنسان ويعمل ...

غير أنى قبل أن أبلور أفكارى وأصوغها بما يطابق هذه النظرية « التعادلية » قد حاولت تفسير موقفى من حرية الإنسان ووحدانيته ... فقلت فى كتابى « فن الأدب » :

« هذا الموقف من قضية العصر ، قد وقفته وتأملته ... فالإنسان عندى ليس إله هذا العالم ... وهو ليس حراً ... ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية ... هذه الإرادة التى تتجلى للإنسان أحياناً فى صور غير منظورة من عوائق وقيود على الانسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب عليها ، . . فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم العقبات ، فطريق النبى ليس معبداً ، ولكنه يجاهد فى تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز الناس ...

إن قضية العصر اليوم ، وهى التى تقوم على حرية الإنسان ، سواء باعتباره فرداً أو باعتباره جماعة ، إنما تتحد وتتلاقى

في أمر واحد هو : إنكار الله ... إنكار القوى غير المنظورة التي تؤثر في مصير الإنسان ...

على أن شعوري بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة في مصيره ليس مؤداه التشاؤم ...

كما أني لست أرى في النظريات الأوروبية القائلة بحرية الإنسان أمام مصيره ؛ ما يدعو إلى التفاؤل ... العكس هو الأصح ... فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على هذه الأرض كانت في رأيي من الأسباب التي أدت إلى كوارث العالم اليوم ... فالإنسان الإله الحر الذي لا شريك له ولا سلطان لقدر عليه ، مع ما يركب فيه من غرائز الحرب والكفاح ، عندما جحد وجود غيره على الأرض ، وأنكر كل قوة غير قوته في الدنيا ، لم يجد ما يوجه إليه غرائز حربه ونشاط كفاحه غير نفسه ، فانقلب محارباً نفسه ، هادماً ذاته ... في حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التي تواجه الإنسان وتؤثر في إرادته وحريته ، تدفع به في نهاية الأمر

إلى أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة ، وهذه القوى الخفية ... فالشعور بعجز الإنسان أمام مصيره هو عندى حافز إلى الكفاح ، لا إلى التخاذل ... « أهل الكهف » كافحوا ضد الزمن ... ولبث أحدهم متعلقاً بالحياة ، يقارع الزمن بسيف بتّار ، هو « القلب » ، إلى آخر لحظة ... و « شهرزاد » جاهدت محاولة أن تردّ إلى الصواب زوجها الذى أراد أن ينبذ أرضه وآدميته ، وأن تعيد إليه إيمانه ببشريته ... و « سليمان » جاهد ضد إغراء القدرة التى كادت تخرس صوت الحكمة ... وهكذا كان الإنسان عندى ، يجاهد دائماً ضد العوائق الخفية التى شعر بتأثيرها فى حريته وإرادته ومصيره ...

لو اتجه تفكير الأدب الأوربى المعاصر إلى هـــذه الوجهة ، ودعا إلى حشد قوى الإنسان ضد القيود الخفية التى تكبل حريته الحقيقية ؛ لكان فى هذا النوع من

التفكير بعض الحل لأزمة الإنسانية فى العصر الأخير ... فأزمة الانسان اليوم هى حربه ضد نفسه ... فهو ليس له قريع آخر غير نفسه ... لم يعد فى غروره يرى سوى حريته المطلقة ... لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة ، التى تحرك وجوده وتلعب بمصيره ، وتستوجب نضاله ، وتتطلب تفكيره ... » .

الأدب الأوروبى فى هذا العصر لا يريد إذن أن يقف من الانسان موقفاً صريحاً صادقاً ... فإلباس الانسان ، على هذه الصورة ، ثوباً مسرحياً من قدرة وحرية لا حدّ لهما ، ووضع هالة الألوهية هكذا فوق رأسه ... تبرق بأشعتها الصناعية ... كل هـــذا الخداع ، شأن كل خداع ، مهما يكن من سلامة دوافعه وأهمية أهدافه ، فإن له من العواقب ما يهدد بصيرة الانسان ...

الآله وقد كشفت لك عن رأيي فى وضع الانسان من الكون ، على أساس أنه يعقل وجود الأرقى ويشعر به ، ويدرك أنه حر الارادة فى نطاق إرادة خارجية عليا ... فلننتقل إلى وضع هذا الانسان فى المجتمع ، بحالته هذه وإدراكه هذا ...

ما هو المنتظر من هذا الانسان أن يصنع ؟... إنه كما ذكرت ، ليس كالنحلة ركب فيها عملها من البداية إلى النهاية ... لا ... إنه أعطى آلة مفكرة قابلة للنمو ، وآلة شاعرة قابلة للنمو أيضاً ... وهذا كل شيء ...

ماذا يصنع ؟ ... وفى أى طريق يسير ؟ ... لا بد له من هداية ... لا بد له من نموذج ... هذا النموذج هو إدراكه للأرقى ، هذا الادراك للأرقى ، هو دليله الذى يقوده فى طريق الحياة الانسانية ... هو حافزه للتطور ...

هذا الادراك للكائن الأرقى ليس عندى مجرد عقيدة دينية ؛ بل هو ضرورة إنسانية ... شأنها فى ذلك شأن الضرورة الحيوانية التى تحمل الحيوان على إدراك الأقوى ...

فإدراك الحيوان لوجود الأقوى هو الذى يحمله على اكتشاف منابع قوته الذاتية ، وتنميتها وإعدادها لساعة المواجهة واللقاء ... ولو فرضنا أن حيواناً عاش وحده فى جزيرة نائية ، اطمأن فيها إلى وجوده ، ولم يشعر بقوة فيها غير قوته التى لا يرى حاجة إلى استخدامها أو مقارنتها بأخرى ، لكان من الجائز أن تضمر هذه القوة فيه وتضمحل ... فالشعور بوجود الأقوى ينشط القوة ... كذلك الشعور بوجود الأرقى عند الإنسان ينشط الرقى ...

إن نظرية التطور عند « لامارك » و « داروين » و « سبنسر » لن تصح فيما يتعلق بالانسان إلا إذا أدرك

وجود الأرقى ... فنمو عقله وقلبه رهن بهذا الادراك ... طبقاً للقاعدة التى تقول بتطور العضو تبعاً للوظيفة ، تلك هى الضرورة الانسانية التى أرتبها على اعتقاد الانسان بأنه ليس وحده فى الوجود ... هذه الضرورة التى تحمله على اكتشاف نفسه ، وارتياد منابع قواه الذهنية والروحية ، وتنميتها وإعدادها لمواجهة تلك الأسرار والقوى الخفية التى تبهر عقله وتخلب لبه ... وهو فى هذا الكشف والارتياد والتنمية يتغير ويتطور ، ويسمو على ذاته طبقة بعد طبقة ... فرداً ومجتمعاً ...

والإنسان قد تطور فعلا بناء على هذا الادراك الأرقى بعقله وقلبه ... ثم وقف تطور الإيمان القلبي ، كما ذكرت ، واستمر التفكير العقلى يتطور وحده فى قفزات باهرات ، جعل العصر الحديث ينسى النموذج الأصلى ؛ وهو الكائن الأرقى ؛ أو فكرة الله ... ولا يرى غير العقل المنتصر بمفرده ...

هذا الاختلال فى التعادل بين تطور الفكر وتطور الإيمان ، قد عرقل سير الانسان فى طريق الرقى الكامل ، كما عرقله أيضاً اختلال آخر فى التعادل بين تطور الفرد وتطور المجتمع ...

قلت لك إن الانسان ليس خاضعاً للجبرية التى تخضع لها النملة والنحلة ... فهو قد خلق حراً يتكيف عمله ويتحدد اتجاهه تبعاً لظروف اتصاله بالحياة ، ومهما يكن من أمر وجود القوى الأخرى التى تؤثر فى إرادته ؛ فإن هذا التأثير لا ينفى عنه صفة الارادة الحرة فى كثير من أوضاعها ...

وما دام الانسان حر الإرادة ، ولو بعض الحرية ؛ فهو إذن مسئول ... لأن المسئولية تنبع من الحرية ... فالنحلة أو النملة ليست مسئولة عن عملها ؛ لأنها خلقت به ... أما الإنسان فلم يخلق بعمله ... فهو إذن مسئول عنه ...

وإذا ذكرت مسئولية الإنسان منذ القدم ذكر الخير والشر ... لأن الخير والشر هما الموجب والسالب فى كهرباء العلاقات البشرية ... والخير والشر فى رأيي لا شأن لهما بالإنسان الفرد ... ولا وجود لهما إلا بالمجتمع ... فلو فرضنا

وجود شخص منعزل فى جزيرة ، ليس فيها غيره وغير أشجار فاكهة يطعم منها ، فإن الخير والشر لا يوجدان فى هذه الجزيرة ... فإذا فرضنا أن شخصاً آخر هبط عليه ، وعاشا معاً ، فإن الخير والشر يولدان ليعيشا معهما ... فقد يحدث أن يقطف أحدهما ثمرة شهية يطمع فيها الآخر ، فيختلسها منه أو يغتصبها لنفسه ، وقد يحدث أن يمرض أحدهما فيقوم الآخر على خدمته ومعونته... فالخير وهو الفعل الإرادى الذى يؤدى إلى نفع الغير ، والشر وهو الفعل الارادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، لا يوجدان إلا بوجود الغير ... فلا بد إذن من وجود الغير ، أو بعبارة أخرى المجتمع ، حتى يوجد الخير والشر — فالخير والشر لم يولدا مع الإنسان ، ولكنهما ولدا مع المجتمع ... أو على الأصح بعد ميلاد المجتمع ... وأقصد بالمجتمع هنا مجرد اجتماع شخصين فأكثر...

وهنا يصح أن نسأل :

— أيهما ولد قبل الآخر ؟ ... الخير أم الشر ؟ ...

في رأيي أن الشر والخير ، كالليل والنهار ، يتعادلان ولا ندرى أيهما أسبق ... وقد يكون الشر هو الأصل فى الإنسان ، لأنه متصل بالوعى الأساسى للإنسان : وهو الشعور بالذات ، وحب هذه الذات ... فحب الذات الغريزى فى كل الموجودات الحية ، ومنها الإنسان ، يدفعه إلى إرضاء هذه الذات ولو أدّى ذلك إلى إيذاء الغير ... وكلما كان المجتمع بدائياً همجياً انطلقت هذه الأثرة الغريزية على فطرتها غير مبالية بضرر الغير ... ولكن المجتمع فى تطوره نحو النظام رأى أن ضرر الغير لا بد أن يوازَن ويعادل بفعل آخر ، هو : نفع الغير ، وكلما ارتقى المجتمع اتخذ نفع الغير وضعاً هاماً من أوضاع السلوك العام ، فمجّد الخير وحقّر الشر ... لأن المجتمع يعلم أن الخير فى حاجة إلى دعوة وتشجيع ، لأن حب الغير أشق وأصعب عند الإنسان من حب النفس . فالخير وليد الروح والتهذيب ، ولكن الشر وليد الغريزة والطبع وكان من أثر هذه الدعاية بصورها

المفرقة أن وضعت العلاقة بين الخير والشر وضعاً مصطنعاً أدى إلى انشطار المجتمع إلى أخيار وأشرار ، وأبرياء ومجرمين ... وهـــذا التقسيم ليس فى مصلحة الإنسان ولا المجتمع ... ذلك أنه يحفر هوة وهمية بين الإنسان والإنسان ، ويصم طائفة من المجتمع بوصمة سوء عرفية لا تزول عنهم أبداً ... وهذا مع ما فيه من إلحاق الشلل والعقم بجزء من جسم المجتمع ، فإنه مخالف لحقائق الأشياء ...

لقد لاحظ أحد النقاد الأجانب أن مسرحى يقوم على أشخاص تتحدد مراكزهم ، لا بالنسبة إلى الخير والشر ، بل بالنسبة إلى الحقيقة والواقع ... هذا صحيح ، فأنا لم أبرز قط أشخاصاً ينتمون إلى الخير مطلقاً ، أو إلى الشر مطلقاً ... فأنا أرفض هذه الفكرة ، ورفضتها دائماً فى كل ما كتبت ؛ بل إنى رفضت فكرة الثواب السماوى للخير المطلق ... راجع قصتى « طريد الفردوس » ... لأن الأنبياء والرسل أنفسهم

تعرضوا لعتاب الله ، ولا يمكن أن يعاتب الله على الخير ...

فالإنسان عندى قيمة ثابتة ، تلحق بها أحوال متغيرة من الخير والشر ، والصحة والمرض ... وأن من يأتى عملا يضر الغير ، يستطيع أن يأتى عملا ينفع الغير ... وهو لذلك ليس خيّراً ولا شريراً ، ولا صحيحاً ولا مريضاً فى أحواله العادية ؛ إنما هو موضع تتعادل فيه وتتوازن هذه الحالات المختلفة المتغيرة ... فهو يكون فى حالة مرض ، ولكنه يعمل للشفاء : أى للاقتراب من حالة الصحة ... ذلك أن الإنسان باعتباره قطعة من عالمه المتحرك ، ما يكاد يقع فى حالة حتى يبدأ فى التحرك نحو الحالة المقـــابلة أو المعادلة ، وهو لا يبقى فى حالة واحدة طويلا إلا بوسائل صناعية ... فمن بقى فى حالة الشر أكثر مما ينبغى واستمر يضر الغير ، فإن ذلك فى أكثر الأحيان راجع إلى أن المجتمع سدّ فى وجهه طريق الانتقال إلى الحالة المعادلة التى تتيح له فعل الخير ... لذلك أرى أن فكرة الخير والشر

يجب أن تتغير فى نظر المجتمع ... وأن المجتمع يجب أن يقف من مرتكب الشر — لا موقف المنتقم — ؛ بل موقف المطالب بحالة التعادل ، أى بفعل الخير ... وعلى هذا الأساس يجب أن تتغير فكرة العقاب ... فمعاقبة مرتكب الشر بحبسه : أى بحرمانه من حريته ؛ فكرة خاطئة ... فحرية الإنسان يجب أن تبقى له ... وثمن الجريمة يجب أن يُدفع — لا من حرية الإنسان — ؛ بل من عمل إيجابى يوازن ويعادل العمل الذى ارتكبه ... إن من يرتكب الشر : أى من يقوم بالعمل الإرادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، يجب أن يدفع الثمن بعمل إرادى يؤدى إلى منفعة الغير ... أما أن يؤدى المذنب الثمن بمجرد حرمانه من التدخين أو الطعام أو الاتصال بأهله وذويه ، فهذا إجراء سلبى لا يعود على الغير بفائدة ، ويعود على المذنب بشر العواقب ، فهو يفقده آدميته ، ويقلبه وحشاً بشرياً يتدرب فى سجنه وقفصه على التنمر للمجتمع الذى وصمه بوصمة الإجرام ...

وهذا ما يفسر لنا كيف نجحت السجون وتنجح فى مختلف الأمم – مهما يبلغ رقيها – فى تخريج طراز خطر ماهر مدرب من المجرمين المحترفين ... ذلك أن فكرة العزل عن المجتمع ، تحمل فى نفسها خطرها على المجتمع ... فالمجتمع الذى يدفع عن حظيرته شخصاً – ولو لمدة محدودة – يقلبه فى الحال عدواً ناقماً ... وان فى طرد مرتكبى الشر بعيداً عن المجتمع ، وتجميعهم فى مكان واحد ، لما يربطهم جميعاً برباط واحد ، ويجعلهم يكوّنون فيما بينهم مجتمعاً آخر ، تسوده تعاليم أخرى معادية لتعاليم المجتمع الذى طردهم ... وهكذا تتم عملية الانشطار بين أهل المجتمع الواحد ، وينقسم الناس إلى أخيار وأشرار ؛ بحكم القانون والعرف ، لا بحكم الواقع والحقيقة ... ذلك أن من بين أفراد المجتمع مذنبين ومرتكبى شر لم يقبض عليهم ولم يقعوا تحت طائلة القانون استمروا فى حياتهم العادية بين أهلهم وذويهم ، يتحركون فى المجتمع بكامل حريتهم وحقوقهم ، يصنعون الشر مرة

والخير مرة ، إلى أن تتغلب حالة على حالة ، فيظهر خيرهم ونفعهم للناس ؛ فيرضى عنهم المجتمع ، أو يظهر شرهم وضرهم للناس ؛ فيطالبوا بتقديم الحساب ... وهذا الحساب هو وحده الذى يجعل منهم المجرمين المحترفين ما دام يتخذ شكل الحبس الذى أشرنا إليه : أى القفص الذى تتدرب فيه الوحوش على صقل مخالب الإجرام ...

والرأى عندى هو إعادة النظر فى طريقة الحساب والعقاب ... فيما عدا عقوبة الإعدام للقتل العمد ، فهى لابد أن تبقى ... لا على أنها عقوبة ؛ بل لأنها وضع طبيعى ... فطبقاً لمذهب التعادل : لا شىء يعادل حياة الإنسان غير حياة الإنسان ... أما بقية الجرائم التى يعاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية : أى بالحبس والسجن ؛ فهى التى يجب أن تتغير وتوضع على أساس جديد ... على أساس المعادلة — لا بين الحرية والشر — ؛ بل المعادلة بين الخير والشر ... أى أن من يرتكب فعلاً يضر الغير

يجب أن يعادله بفعل ينفع الغير ... وعلى هذا الوضع يجب أن تلغى السجون ، ويقام بدلاً منها مصانع وأدوات إنتاج ... فمن فعل شراً بالمجموع عليه أن ينتج خيراً يفيد المجموع ، دون حاجة إلى أن يطرد من مجتمعه أو يقصى عن أهله وذويه ، أو يحرم من حريته فى ممارسة حياته العادية ... كل ما يطلب منه هو أن يؤدى ثمن الشر الذى ارتكبه من إنتاجه ... يجب أن ينتج لحساب المجتمع ما يعادل فى الزمن والكم جسامة الشر الذى صدر منه ... هذا الحساب الإيجابى المنتج أفيد وأنفع للمجتمع من السجن السلبى العقيم ، وهو فضلا عن ذلك مبق لكرامة المذنب ... لأنه يبقيه بين مجتمعه وأهله : أى فى البيئة الصالحة لتوبته وتحركه فى اتجاه الخير ...

ووجود الخير والشر يؤدى إلى وجود الضمير ... والضمير خاص بالإنسان ... لأن الخير والشر لا يعرفهما الحيوان ... فالحيوان قد ينفع ويضر ، ولكن بالفعل الغريزى لا بالفعل الإرادى ...

ومتى انتفت الإرادة ، انتفت المسئولية ، ومتى انتفت المسئولية عن الخير والشر ، انتفى معناهما ... والضمير كالخير والشر ، لابد لوجوده من وجود الغير : أى المجتمع ... فالإنسان الفرد المنعزل فى جزيرة نائية يعيش بدون ضمير ؛ لأنه يعيش بدون خير وشر وغير ... ولكن ما هو الضمير ؟ ... أهو مجرد الشعور بأن الشر : شر ، والخير : خير ؟ ... بماذا نصف شعور الارتياح عند من يقتل أخذاً بالثأر ، وهو يعلم أن ما فعل شر ؟ ... أو شعور الرضا عند من يسرق ثرياً ليمسك رمقه ؟ ... لا بد من وجود عنصر

ضرورى فى الشعور حتى يوجد الضمير ... هذا العنصر هو الإحساس الذاتى بالذنب ، هو إحساس مرتكب الشر بأنه أحدث بالغير ضرراً جديراً بإصلاح ... الضمير هو إذن شعور الذات بشر لحق الغير لم يقدم عنه حساب ... ذلك أن المذنب الذى يعاقب على ذنبه أو يكفر عنه التكفير الكافى ، لا يسمع فى أعماق نفسه صوتاً للضمير ... فالضمير لا يتكلم إلا ليذكر بالمديونية قِبل الغير ، أو بعبارة أخرى يذكر النفس أن الشر الذى ارتكب يجب أن يعادل بخير ... هذا الشعور بالتعادل يسمى فى عرف الأخلاق بـ « العدل » ... فالعدل هو المظهر الأخلاقى للتعادل ... والضمير إذن هو الشعور بالعدل ، أو على الأصح : شعور الذات بعدل لم يتحقق نحو الغير ...

والضمير كما يوجد عند الفرد يوجد عند المجتمع ... فالمجتمع يتولد فيه أيضاً شعور بأن عدلاً لم يتحقق نحو الغير ، أى نحو طائفة منه لحقها شر بفعل طائفة أخرى ...

وهنا تقوم الثورات الاجتماعية لتصحح الوضع وتعيد حالة التعادل ، التى تسمى العدالة ، أو العدل الاجتماعى ...

فى محيط « الأخلاق » الضمير — الفردى أو الجماعى — هو الحارس المنوط به الصياح لطلب العدل : أى التعادل ...

أما فى محيط السياسة والاقتصاد ؛ فإن الحارس هو القوانين الآلية التى تعمل من تلقاء نفسها ، كما تعمل قوانين الغريزة فى محيط الحيوان والنبات .

ففى السياسة الدولية لا بد دائماً من توازن : أى تعادل بين القوى ... وقلما حدث فى تاريخ الأمم أن انفردت طويلا دولة واحدة بالقوة فى العالم ... حتى يوم كادت الدولة الرومانية أن تسيطر بمفردها على الدنيا : انشطرت هى نفسها إلى قوتين ، إحداهما فى روما بزعامة « اكتافيوس » والأخرى فى الإسكندرية بزعامة « أنطونيوس » ... ثم حدث لها نفس الأمر فى العهد المسيحى ، حيث قامت الدولة الرومانية الغربية فى « روما » ، والدولة الرومانية الشرقية فى

«القسطنطينية» . وهكذا ... وهكذا ...

وفى السياسة الداخلية لا بد دائماً أيضاً من توازن : أى تعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم ... حتى فى عهد السلطان المطلق ، فإن قوة المحكوم كانت تجد لها منفذاً وسبيلا من خلال رجال الدين أو رجال الفكر ... فلما استطاع الشعب فى العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه ؛ انشطرت قوته نفسها إلى قوى مختلفة فى صورة أحزاب تتوازن وتتعادل كى تحتفظ بوجودها الضرورى ، للتعبير عن إرادة من تمثلهم من طوائف الشعب ... فإذا تغلبت طائفة فى النهاية ، وابتلعت كل ما عداها من الطوائف والطبقات ، واتحدت فى قوة واحدة تشمل الدولة كلها ؛ فإن هذه القوة أيضاً لا تلبث أن تولد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد فى الظهور ... وقد تخنق وتكبت وتهزم وتخفق ؛ ولكنها لا بد يوماً أن توجد ... لأن قانون التعادل الذى نرى مظهره فى الشهيق والزفير ؛ هو الذى يعمل هنا أيضاً ، ونرى

مظهره فى وجود حركة توازن حركة ... لأن هذا هو شرط الحياة ...

أما فى الاقتصاد : فقانون التعادل صارم فى عمله ... فلابد أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، كالتوازن بين الشهيق والزفير ... فإذا زاد العرض زيادة فاحشة على الطلب ، انعدمت قيمة السلعة ، وإذا زاد الطلب زيادة فاحشة على العرض ، ارتفع السعر واختنق السوق ، وكان لا بد من عودة التعادل بوسيلتين : إما بالمبادرة إلى زيادة العرض ؛ فيعتدل السعر وتعود الحركة الطبيعية للسوق ، وإما أن يتعذر إيجاد العرض ، فيظهر قانون آخر ، هو قانون التعويض ، خلاصته أن سلعة أخرى مشابهة إلى حد ما فى الوظيفة للسلعة النادرة ، تحتل مكانها عوضاً عنها فى سوق العرض .

كذلك الحال فى الميزان التجارى ، وفى التعادل بين الصادرات والواردات ، وفى معادلة الميزانيات بين الإيرادات

والمصروفات ... وهكذا ... وهكذا ... ما الاقتصاد إلا تعادل بين عوامل مختلفة تتحرك طول الوقت فى الكيان المالى للأفراد والأمم ، وإذا اختل هذا التوازن فترة ، فلابد أن يعادل نفسه بنفسه بقوانينه الذاتية .

وللتعادل أداته الفعالة التى يستخدمها دائماً فى كل محيط : سواء فى العلم ، أو فى الأخلاق ، أو فى الفن ، أو فى الفكر ، أو فى السياسة ، أو فى الاقتصاد الخ... هذه الأداة هى مايسمى بـ « رد الفعل » ... كل فعل فى كل محيط له رد فعل ، وما رد الفعل هذا سوى آلة التعادل للفعل إذا أسرف وجار واختل توازنه وجاوز حدوده ... رد الفعل ؛ أو بعبارة أخرى : رد التعادل إلى الفعل الذى انحرف إلى مداه ونهايته ... ذلك هو معناه الحقيق ...

فالتعادل ؛ إذن يعمل بجهاز ذى محركين ... رد الفعل ، والتعويض ، ولعل مظاهر التعويض من أوضح ما يصادفنا فى الكائنات جميعاً — فكل ضعف تعوضه قوة ... وكل نقص

تقابله زيادة ... فالنحلة رقيقة الجناح ، ولكنها حادة الإبرة ، والثقيل فى الوزن والجسم ، غالباً ما يكون خفيف الظل والروح ... والفقيرة فى جمال الوجه أو الجسد أو الشكل كثيراً ما تكون غنية فى جمال النفس أو الخصال أو العقل ... وهكذا وهكذا ... ذلك أن التعادل لا بد أن يتم على أى حال ... فكل فعل لا بد له من رد فعل ... وكل ضعف لابد له من قوة مقابلة ... وكل نقص لا بد له من زيادة معادلة ... فالشر والضعف والنقص والقبح حالات فى الكائنات لايمكن أن تقوم بنفسها دون وجود أضداد تعادلها ... وكل المشكلة هى أن الكائن العاقل ، أعنى الإنسان ، هو وحده الذى يجهل أحياناً تلك الحقيقة ... فإذا لحقته حالة من تلك الحالات ، وقع فى اليأس ، فلم يسع إلى اكتشاف القوى المعادلة الموجودة لديه وهو لايدرى ... فى حين أن الكائن الغريزى ، أى الحيوان أو النبات ، لايقعد يائساً ولا جامداً ، بل يدرك بمعارفه الغريزية أين يجد قواه المعادلة .

أشرت منذ لحظة — فى صدد الحديث عن التعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم — إلى رجال الفكر ، باعتبارهم المنفذ الذى تتسرب من خلاله قوة المحكوم فى عهد السلطان المطلق ... وهذا قد يدعوك إلى التساؤل :

— ما هو الفكر ، وما هو السلطان ؟ ...

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتصور مرة أخرى ذلك الرجل المنعزل فى الجزيرة النائية ... هذا الرجل كيف يقضى حياته ؟ — إنه ولا شك يعمل فى نهاره ليوفر لنفسه المأكل والملبس والمأوى ، فهو يقطف الثمر من الشجر ، ويصنع من الأغصان كوخاً ، وينسج من بعض الألياف ثياباً ... أى أنه يباشر العمل الضرورى لحياته المادية ... فإذا جاء وقت الراحة واضطجع فى الظل الوارف ، وأرسل بصره إلى السماء الصافية بدأ يفكر فى حاله قائلا لنفسه :

— وبعد ؟ ... من أنا ؟ ... وما معنى حياتى ؟ ... أهى تسرنى ؟ ... نعم إن حولى أشياء جميلة ؟ ... ماهو الجمال ؟ ... هو إدراكى لخلق أعجب به ... وما دمت قد وعيت الإعجاب فإنى أشعر بوعى آخر : هو التمنى ... إنى أتمنى أكون أون على صورة تعجبنى ... تملؤنى إعجاباً ... صورة أفضل ... مادمت قد وعيت الأفضل لى ... فحاضرى إذن لا يعجبنى تماماً ... إذن أنا أنتقد وضعى ... على أى صورة أفضل أود إذن أن أكون ؟ ... هذا الكوخ أولاً يجب أن يصير متسعاً مرتفعاً ، لأشرف منه على البحر ... وهذا البحر يجب أن أسبح فيه ... فلأصنع إذن قارباً ... فإذا صنعت القارب فإنى أستطيع أن أحيط بالجزيرة وأعرف كل شواطئها ، وقد أتمكن من استكشاف جزيرة أخرى قريبة ... الخ ...

هذا هو التفكير ... وقد يؤدى هذا التفكير إلى العمل ... فينهض هذا الرجل فى اليوم التالى ليحقق بالفعل كل أو بعض ما فكر فيه ... وقد يصادف من العوائق والصعوبات

ما يصرفه عن تحقيق أفكاره ، فيكتفى بعمله اليومى المعتاد ، ويجلس يسخر من تفكيره ، ويهزأ بتبرمه ونقده لوضعه ... وهكذا :

إما أن ينجح الفكر فى توجيه العمل ، وإما أن ينجح العمل فى خنق الفكر .

فإذا فرضنا أن رجلا آخر قد هبط الجزيرة ... وأصبح فى الجزيرة رجلان : أى مجتمع صغير ... وكان أحدهما أقوى عملا ، والآخر أقوى فكراً ... فما الذى يحدث ؟ ... ما من شك فى أن أحدهما سيؤثر فى الآخر ... وهذا التأثير سيختلف فى المدى والصفة تبعاً لسلطان كل منهما ... فإما أن يظهر سلطان العمل فيخضع الفكر لإرادته ... وإما أن يظهر سلطان الفكر فيوجه العمل حسب مشيئته ... وإما أن يحتفظ كل منهما بسلطان معادل تجاه الآخر ، فيكون التوازن الذى يحد من انفراد أحدهما بالسيطرة انفراداً طاغياً .

فإذا انتقلنا من المجتمع الصغير فى هذه الجزيرة إلى المجتمع الكبير فى الأمم والشعوب ، فإننا نجد الصراع بين هاتين القوتين : قوة العمل وقوة الفكر ، يحتل الجزء الأكبر من تاريخ البشرية ... فالعمل من قديم ممثل فى السلطة المادية التى تتولى أمور الناس بالفعل ... والفكر ممثل فى السلطة الروحية التى تبصر وتنقد وتفتح للناس الآفاق التى يمكن أن يمتد إليها التطور الإنسانى ...

ولعل أول مظهر للسلطان العملى هم الملوك ، وللسلطان الروحى هم رجال الدين ... والصراع بين السلطانين معروف من قديم ... أما رجال الفكر ، من فلاسفة وشعراء وعلماء وأدباء وفنانين ، فإنهم لضعفهم وفقرهم وتفكك الرابطة بينهم ، قد اضطروا فى العصور القديمة إلى خدمة الأقوى والأغنى ، وهم الملوك ... وبقى رجال الدين يصارعون إلى أن ضعف سلطانهم بضعف سلطان الدين نفسه ، وخاصة فى العصور الحديثة ، على أثر التقدم

العلمى ، وركود التجدد الروحى ... على أن التقدم العلمى أو العقلى قد ردّ إلى رجال الفكر سلطانهم المفقود ... فبدأوا يظهرون بمظهر القوة المستقلة فى إطار الديمقراطية التى أضعفت الملوك ، ونوّرت الشعوب ومكنتها من اقتناء الآثار الفكرية ، وضمان العيش لرجال الفكر ...

فالعصر الحديث إذن لم يعد عصر الصراع بين الملوك ورجال الدين ...

فما الذى حدث اليوم لقوة العمل وقوة الفكر ؟ ...

إن الإجابة عن هذا السؤال تلخص كل روح العصر الحاضر ... فقوة العمل اليوم يمثلها حكام من صميم الشعب ، يصلون إلى السلطة عن طريق الأحزاب والانتخابات ... وسواء أكان الحكم فى أيدى أحزاب متعددة تتناوبه ، أم فى يد حزب واحد يسيطر عليه وحده ؛ فإن الشعوب الآن هى التى تحكم نفسها بنفسها ... وعندما يقال إن شعباً يحكم نفسه فمعنى ذلك بالطبع أنه اختار حكامه من

أبنائه ؛ وهؤلاء الأبناء هم الذين تتركز فيهم قوة العمل ...

على أن هـذا الوضع الحديث لم يغير الشعور الخفى الذى يكنه العمل نحو الفـكر ... فقوة العمل التى تمثل « التنفيذ » تخشى وتـكره دائماً قوة الفـكر التى تمثـــل « النقد والتوجيه » ...

إن « العمل » فى كل زمان يحاول أن يلزم « الفـكر » بالطاعة ، ففى عهد الملوكية يوم كان رجال الدين هم القائمين بمهمة النقد والتوجيه لسلطان الملوك ، كان الملوك يجاهدون دائماً لخفض هذه الأصوات المرتفعة إلى جانب إرادتهم ، فتارة يرغبون ويستميلون، وتارة يهددون ويخيفون ، وتارة يستولون عنوة على القوة الروحية ويعلنون أنهم هم الرؤساء الحقيقيون للدين ...

فى العصر الحديث يتعرض « الفـكر » لعين الخطر ، ولـكن فى صورة جديد ... فالحـكم الديمقراطى أو الشعبى لا يستطيع فى كل الأحوال أن يخفض صوت « الفـكر »

الحر قهراً وغصباً، ولكنه يستطيع أن يلغى وجوده إلغاء ؛ بأن يستدرجه استدراجاً إلى حظيرة السياسة العملية ... ومتى دخل رجل الفكر تلك الحظيرة فقد بطل نقده وتوجيهه وتفسيره، وأصبح منضما إلى نظام معين، يسير فى اتجاهه، ويعمل بتعليماته، ويخضع لإرشاداته ؛ وبذلك يتجنب الحزب السياسى فكراً طليقاً مناهضاً لإرادته ، ويكتسب جندياً مطيعاً يأتمر بأوامره ...

وهذا الاستدراج للفكر كى يقع فى حظيرة العمل ، يتم فى العصر الحديث بواسطة شباك ونخاخ صنعت بمنتهى البراعة : شباك ونخاخ فى صورة نظريات أدبية وفلسفية ، تؤدى كلها فى النهاية إلى أن يلتزم الفكر بالعمل التزاماً يضر بمقومات حياته ، أو يخضعه له إخضاعاً يقضى على كيانه الذاتى ...

وبعض الواضعين لهذه النظريات من رجال الفكر أنفسهم لم يقصدوا الإضرار بالفكر ، ولكنهم انجرفوا

تحت تأثيرات مختلفة ... منها حنين بعضهم إلى العمل حنيناً أفقدهم الثقة فى قوة الفكر الذاتية ... خصوصاً فى عصر بلغت فيه المادية أوجها ... وعصفت فيه الحروب بالقيم ، وزلزلت النظم ، وتغلغلت آثارها المدمرة فى نفوس الأفراد والجماعات ، وأصبح لكل شخص على الأرض مشكلة يريد لها حلا ، وأسئلة ينتظر عنها جواباً ... وأحس رجل الفكر أن مهمته قد ازدادت عبئاً ... ومسئوليته قد ثقلت وزناً ... وخشى أن يكون القلم فى يده غير كاف ولا شاف ...

هذا الايمان المزعزع بقوة الفكر ، قد دفع بعضهم إلى الانخراط فى سلك حزب من الأحزاب ، فانقلب بذلك إلى رجل عمل ، وانقلب فكره داعية لحزبه ... كما دفع بعضهم إلى الحيرة بين الأحزاب المختلفة ، والنضال فى الميادين المتعددة ، يتقاذفه القلق وخيبة الأمل ، إلى أن ينتهى به الأمر ، إما إلى تأليف حزب خاص يحبس فيه فكره ، وإما إلى تأجير الفكر أو التبرع به للخدمة فى كافة ميادين

السياسة والحكم ...

فى كل هذه الصور ، ما ارتفع منها فى المعنى وما انخفض ، ترى رجل الفكر قد ضعف وشك واستسلم وترك مكانه هلعاً ، وجرى ينضم تحت راية السلطة العملية ... وبذلك هرب من رسالته الحقيقية ... تلك الرسالة التى تعتبر « الفكر » قوة مستقلة معادلة وموازنة ومراقبة لقوة « العمل » .

وهذا التعادل بين القوتين يبطل إذا ابتلع أحدهما الآخر ، والخوف دائماً على الفكر منذ القدم ... لأن العمل : أى الحكم هو الأقوى ... وهو الذى اعتاد أن يبتلع الفكر ...

فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر وأن يصون وجوده الذاتى حراً مستقلا ، وأن يصمد به فى وجه كل عدوان ؛ لأنه هو الضمان الوحيد على هذه الأرض الآن تجاه انحراف قوة العمل الانحراف الطاغى المدمر ...

لكن هل معنى حرية الفكر واستقلاله أن ينفصل

وينعزل ، كما يتهم أحياناً ؟ ... لا ... استقلال الفكر شيء ، والانعزال شيء آخر ... المنعزل لا يتأثر ولا يؤثر ، فهو شيء غير كائن بالنسبة إلى الغير : أى المجتمع ... والفكر الذى ينعزل عن العمل شأنه شأن الفكر الذى يبتلعه العمل ... كلاهما لا وجود له ... إنما المقصود باستقلال الفكر هو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة فى مواجهة العمل ، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه .

قد تسألنى : ولماذا نفصل الفكر عن العمل ؟ ... ألا يمكن أن يندمجا ويتحدا ؟ ...

جوابى أن هذا مستحيل ...

لأنهما عندما يندمجان ويتحدان يصبحان شيئاً واحداً هو : العمل ...

ولنضرب مثلا بسيطاً : أنت تفكر فى السفر إلى الريف للنزهة ... فإذا سافرت بالفعل فقد انقلب تفكيرك إلى عمل ...

وإذا لم تسافر فإن الذى حدث هو التفكير ... فإذا اندمج التفكير واتحد مع العمل ، فمعنى ذلك أنك سافرت : أى أصبح الفكر عملا ، أى أنه لم يعد هناك تفكير وعمل ، بل عمل فقط ... لأن التفكير انتهى ... ابتلع فى جوف العمل ...

قد تقول : إن كل عمل هو إذن نتيجة تفكير سابق ؟ ...

هذا صحيح ...

العمل هو تفكير تحجر ونفذ ... أو إرادة تجمدت فى وضع نهائى ... والفكر هو إرادة حرة سائلة قابلة للتحرك والتكيف والتطور ...

فأنت عندما تفكر فى السفر إلى الريف للنزهة تستطيع أن تغير هذه الإرادة وتحركها وتطورها كيفما شئت ...

ولكن إذا تحولت هذه الإرادة إلى عمل وتم السفر ، فإن الفكرة التى كانت طليقة قد تحجرت بمجرد تنفيذها ...

فالعمل إرادة تجمدت وتقيدت والتزمت بوضع خاص .

فالالتزام إذن من صفات العمل .

والحرية من صفات الفكر .

والفكر الذى يلتزم ينقلب إلى عمل .

وهذا بالضبط هو الذى يحدث فى الأحزاب السياسية والاجتماعية ... فالبرنامج الحزبى : أى المذهب السياسى أو الاجتماعى هو فكر تقيد — أى التزم — به الحزب .

فانضمام رجل الفكر إلى حزب من الأحزاب معناه تقيده والتزامه بتفكير الحزب ... وهذا الالتزام يناقض الحرية التى هى جوهر رسالته الفكرية ... لأن التزامه بمذهب حزبه يحرمه مباشرة سلطة الفكر فى المراقبة والمراجعة ... هذه السلطة الحرة التى هى أساس مسئوليته الحقيقية ... وهو بذلك إما أن يخضع ويرضخ لحزبه ، وينزل راضياً مختاراً عن وظيفة رجل الفكر ، ويصبح رجل عمل ... وإما أن يصر على الصمود والاحتفاظ بسلطة وظيفته

الفكرية ، ويناقش أفكار حزبه ويوجهها ويطورها بمطلق الحرية التى تخولها له مسئولية رجل الفكر الحر ، وعندئذ سيجد نفسه مفصولا عن الحزب ومطروداً أو مضطهداً .

على أن ضعف أغلب رجال الفكر فى العصر الحاضر ، وانهياد إيمانهم برسالتهم وقوة تأثيرها ، قد ربط الفكر فى عجلة العمل ، وجعـــل الأقلام فى خدمة الحكومات ... واختل بذلك التوازن والتعادل بين القوتين .

ولعل اختلال التعادل بين قوة الفكر وقوة العمل هو من أسباب الكوارث التى تهدد هذا العصر الحديث ؛ فإن طغيان قوى العمل فى هذا العالم وانحرافها نحو الاستعباد والاستعباد والسيطرة وإثارة الحروب المدمرة ، دون أن تجد أمامها قوى روحية أو فكرية معادلة تتكتل لردها إلى الصواب ، هو ولا ريب من أهم مصادر القلق الذى يخيم على الدنيا ، ويملأ النفوس بشعور من ينحرف سريعاً إلى هاوية ...

عرفنا إذن قطبي النشاط الإنساني ، وهما : الفكر ، والعمل ... وقلنا لماذا يجب أن يحتفظ كل منهما بقوته الذاتية في نظر المذهب التعادلي حتى يتم بينهما التوازن ، لأن هذا التوازن هو الذي يكبح جماح كل منهما ، ويحول دون طغيانه المفسد لكيان البشرية .

ولنقصر الحديث الآن على الفكر ، وعلى الأخص الناحية التي تهمنا منه هنا : وهي « الأدب والفن » .

هنا أيضاً نجد « التعادلية » تقيم الأدب والفن على أساس قوتين يجب أن تتعادلا ... هما : قوة التعبير وقوة التفسير ... فالأثر الأدبي أو الفني لا يكتمل خلقه ، ولا ينهض بمهمته إلا إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة .

ما هو المقصود بالتعبير هنا ؟ ... أهو الشكل ؟ ... لا ... إنه ليس الشكل فقط ... إنه شيء أكثر من ذلك ... ولأضرب

لك مثلا بسيطاً : فلنفرض أنك سمعت نادرة من النوادر يلقيها شخصان ... أحدهما متكلم عادى ... والآخر محدث لبق موهوب ... هذه النادرة الواحدة تتخذ عندئذ مظهرين مختلفين ... فهى فى الحالة الأولى تبدو مجرد حادثة ... أما فى الحالة الثانية فتبدو هذه الحادثة نفسها وكأنها لوّنت وأضيئت وتحركت بحياة نابضة ، لا تدرى من أين أتتها ولا كيف نفخت فيها ... تلك هى قوة التعبير ... إنها ليست فقط طريقة الإبراز والإظهار ... لأن هذه الطريقة لا تقوم وحدها بغير الحادثة التى فى جوفها ... فالتعبير إذن ليس مجرد الشكل ؛ بل هو الشكل والموضوع معاً ... هو الشكل والشىء الذى يتشكل فيه ... هو النادرة والأسلوب الذى رويت به ... فالأسلوب وحده بغير النادرة لا يعنى شيئاً فى ذاته ولا يعبر عن شىء ... فالتعبير إذن يستوجب وجود الأسلوب وموضوعه معاً ... لأن التعبير عن شىء يحتم وجود الشىء ...

وقوة التعبير هى أيضاً توازن وتعادل بين قوة الأسلوب وقوة الموضوع ...

فإذا طغى أحدهما على الآخر ؛ فإنك تشعر فى الحال أن الوضع غير طبيعى ... فالأسلوب البارع والموضوع التافه يثيران فى النفس إحساساً بالتكلف ... وكلمة « التكلف » هنا ليست مجازاً ولا مجرد وصف أدبى ... بل هى ذات مدلول يكاد يكون مادياً ... فإن الأديب أو الفنان الذى يحتفل احتفالا بالغاً بإبراز موضوع هزيل ؛ إنما يتكلف فعلا أمراً لا لزوم له ... كمن يرتدى ثياب السهرة ليجلس بمفرده فى حجرته يتعشى بكسرة خبز !... فعدم مراعاة مقتضى الحال تكلف... والتكلف فى الأسلوب قبح كما هو فى الحياة ... لأن شرط الجمال الفنى أن يثير فى النفس إحساساً بأنه منبثق من نبع طبيعى ... ومهارة الفنان هى فى إحداث هذا الشعور الطبيعى دائماً ... فإذا أحس الناس منه أن جماله خارج من نبع صناعى ؛ فقد أخفق ...

كذلك الحال إذا طغى الموضوع على الأسلوب ... فالموضوع العظيم فى الشكل السقيم يثير فى النفس إحساساً بالتحسر ... كمن يصوغ اللؤلؤة فى خاتم من الصفيح ... اختلال التعادل إذن فى الحالين بين قوة الأسلوب وقوة الموضوع يحدث الشعور كذلك بأن الوضع غير طبيعى .

قد تسأل : ما هو الأسلوب فى الأدب والفن ؟ ... وما هو الموضوع ؟ ... الأسلوب هو طريقتك الخاصة فى الظفر بإعجاب الغير وشعوره وفكره ؛ ليرى ما ترى ، ويحس ما تحس ، ويفهم ما تفهم .

وهذه الطريقة فى الأدب والفن مردها إلى الاستعداد الفطرى والدرس الاكتسابى والاجتهاد الشخصى ... فلابد من بعض الهبة ... ولا بد بعد ذلك من الدرس الطويل لمعارف الأعلام وأساليبهم من الأقدمين والمحدثين ، ولا بد أخيراً من تصرفك الخاص لتلائم وتوازن بين المحاكاة والابتكار ... فإن المحاكاة إذا غلبت عليك فأنت لم تضف

شيئاً إلى من سبقوك ، وإذا أسرفت فى الابتكار فقد قطعت الصلة بينك وبين الآخرين ، وانفصلت حلقتك من سلسلة التطورات الطبيعية فى حياة الأدب أو تاريخ الفن ... هكذا فعل « شكسبير » و « بتهوفن » فيما قاما به من محاكاة وابتكار ...

أما الموضوع فى الأدب والفن ؛ فهو كل ما تستطيع أن تثير به اهتمام الناس ، على نحو غير مسف ولا فارغ ولا مبتذل .

وليس للموضوع العظيم أو التافه شروط معينة أو معالم محددة ... فتقديره متروك لعبقرية الأديب أو الفنان ... فقد يتناول بمواهبه السحرية موضوعاً نحسبه تافهاً ، فإذا هو يخلق منه بقلمه أو ريشته أو مطرقته أو ألحانه شيئاً يثير اهتمام الناس فى جيله وفى جميع الأجيال ... فالموضوع لا تتحدد صفته العظيمة أو التافهة إلا بعد أن يصب فعلا فى الأثر الأدبى أو الفنى ... فالوردة أو الآنية أو التفاحة

قد تكون موضوعاً تافهاً أو عظيماً ، تبعاً للفنان الذى يتناولها ... أى تبعاً لدرجة خبرته واحساسه وقدرته على النفوذ إلى حقائق الأشياء ، أو تبعاً للطريقة التى يختارها الفنان ... فموضوع « هاملت » كان من الممكن أن يبقى موضوعاً تافهاً عادياً لو عالجه شاعر عادى ... وموضوع « هاملت » نفسه كان يمكن أن يصبح فى خفة موضوع « زوجات وندسور المرحات » ، لو أن شيكسبير اختار أن يجعل منه مسرحية ضاحكة عابثة بدلا من تلك المسرحية الفكرية الجليلة ... وشيكسبير كان يدرك بسليقته الفنية معنى التعادل بين الأسلوب والموضوع فكان إذا أراد الجد اتخذ أسلوبه ماينا سب ذلك من العمق ... وإذا أراد الهزل خف أسلوبه فلم يثقله بكنوز فكره ... كان إذا أراد للفكر أن يتألق كالجوهرة كى يضىء حقائق الكون صاغه فى معدن نفيس من أسلوب عميق ... وإذا أراد للنفس أن تضحك لتلهو ساعة عن تعب الحياة استخدم معدناً رقيقاً من

أسلوب خفيف .

ولو أنه صنع العكس ، وكتب « هاملت » بأسلوب « زوجات وندسور » المرحات ، لكان كالصائغ الذى لا يستطيع أن يلائم بين الجوهر والخاتم ... والمقصود بالأسلوب هنا ليس بالطبع اللغة وحدها ؛ بل ما تحمله اللغة فى جوفها من ألوان الصور والأفكار ... وأسلوب الفنان : بمعنى الطابع ، واحد بلا شك فى سمته العامة ... ولكنه يتغير فى درجة الدسامة أو الكثافة تبعاً لألوان الطعام الفنى التى ينتجها ... فطابع « شيكسبير » واحد فى فنه ، ولكن درجة الدسامة فى أسلوبه تختلف باختلاف أنواع مسرحياته ... كذلك طابع « بتهوفن » واحد فى موسيقاه ، ولكن درجة الدسامة تختلف فى بعض السنفونيات عنها فى بعض السوناتات .

وهذه الدسامة والرقة والعمق والخفة ؛ حالات تتعاقب على الفنان ؛ تعاقب الليل والنهار ، والخريف والربيع ، دون

أن تخضع لترتيب منطقي ... فقد يرى البعض أن المنطق يقضي أن يبدأ الفنان حياته بالخفة وينتهي إلى العمق ... ولكن هذا المنطق لا يخضع له الفنان ، فـ « شيكسبير » بعد أن بهرنا بعمقه في « هاملت » أضحكنا بخفته في « العبرة بالخواتيم » . و « بتهوفن » بعد أن وضع في سانفونيته الخامسة العظيمة روح الفلسفة ، تجده قد مزج سانفونيته الثامنة الرقيقة بنسيم الخفة ، فالفنان لا يسير دائماً في خط مستقيم ... والتطور عنده ليس الانتقال المباشر من حسن إلى أحسن ، أو من عميق إلى أعمق ... ولكنه كالطبيعة يتطور من خلال التجربة الذاتية تبعاً لقانون الفعل ورد الفعل ... أي من خلال تجارب متباينة تكشف عن إمكانيات الذات في اتجاهاتها المختلفة ... والفعل ورد الفعل هما أداة التجربة الكاشفة عن الإمكانية ، لا عند الإنسان وحده ، بل عند الكائنات جميعاً ... فالشجرة تنتقل من الإخضرار في الربيع إلى الذبول في الخريف ، ثم تعود إلى الإخضرار ، ثم إلى

الذبول ، وهكذا دواليك ... وقد يبدو فى ذلك أنها تدور حول نفسها ولا تتحرك ، ولكن هذه الحركة حول نفسها هى فى ذاتها دليل الحياة ، وهى القوة الدافعة إلى الأمام بعد ذلك : أى إلى التطور من خلال الأجيال الأخرى المتعاقبة فى الأشجار ... كذلك الحال فى حياة الأرض والكواكب ، فهى لا تسير فى خط مستقيم على نحو مباشر ؛ بل تدور أولاً حول نفسها ، ثم حول الشمس ، ولكنها مع ذلك تسير فى الفضاء إلى الأمام فى إطار المجموعة الشمسية بأكملها ... كذلك الحال أيضاً فى الإنسانية : فإن الحضارة فيها يتقاذفها الفعل ورد الفعل ، فتقع حيناً فى الظلام ، ثم تعود إلى النور ، فى حركة كحركة الليل والنهار ، ولكنها مع ذلك تسير ... فكلمة التطور إذن لا تعنى — عند الطبيعة والبشرية والفكر والفن — السير إلى الأمام سيراً مطرداً مباشراً ... ولكنه التقدم خلال اختبارات وعقبات الفعل ورد الفعل ... فنحن جميعاً من

بشر وأرض وكواكب نسير ونحن ندور ، ونصل إلى الغد عن طريق دورة الليـــل والنهار وتعاقب الظلام والنور ... فكرة التطور على هذا الوجه تجدها فى مسرحيتى « شهرزاد » ...

ومع ذلك ، من يدرى حقيقة ما نسميه النور والظلام ، والارتفـــاع والانخفاض ، والعمق والخفة ، والدسامة والرقة ؟ ... لعلها كلها ، على اختلافها ، حركات ضرورية لتكون الحياة حياة ... ولعلها كذلك فى محيط الأدب والفن ، هى العناصر الضرورية التى يتألف منها « التعبير » .

فلكة التعبير عند الأديب أو الفنان لا يمكن أن تظهر كل أشعتها وألوانها وأنغامها إذا لعب بها على وتر واحد مهما يكن هذا الوتر قوياً بليغاً صافياً نقياً ... ماذا كنا نفضل وماذا كان يفضل الفن الإنسانى ؟ ... أن يخرج لنا شكسبير كل مسرحياته على نسق « هاملت » ، أسلوباً

وفكراً وارتفاعاً ؟ ... أو يلون لنا كل هـــذا التلوين في التعبير ، فيجدّ مرة ويهزل أخرى ، ويعبس ثم يبسم ، ويرتفع ثم يتبسط ، ويطرق متأملا ثم يقهقه ضاحكا ، ويكون تارة فيلسوفاً وتارة مهرجاً ، وحيناً شاعراً ، وحيناً ساخراً ... إن عظمة شيكسبير هى فى أنه استطاع أن يكون كل ذلك ... وقدرته هى فى أنه ملك من أوتار التعبير مقداراً أخرج كل الألوان وكل الأنغام وكل الأصوات وكل الضحكات ...

ذلك هو « التعبير » ...

قوته ليست فى مجرد ارتفاعه ؛ بل أيضاً فى اتساعه ...

والتعبير من غير شك هو كل شىء فى نظر الفن ...

ولكن « التعبير » ليس كل شىء فى نظر « التعادلية » فقوة « التعبير » عند « التعادلية » يجب أن تقترن فى الأدب والفن بقوة « التفسير » ...

ما هو « التفسير » ؟ ...

هو الضوء الذى يلقى على موضع الإنسان فى الكون والمجتمع ...

فالأدب أو الفن التعادلى يجب أن تتوازن فيه القوة المعبرة والقوة المفسرة ...

فالقوة المعبرة وحدها لا تكفى ، لأنها قد تكشف عن مجرد وجودها ... ولكنها قد لا تشع ضوءاً يكشف عن وجود غيرها ... القوة المعبرة قد تكون جميلة فى ذاتها كاللؤلؤة ... ولكنها مثلها : حبيسة جمالها ... لا تضىء غيرها ... إنها ليست كالماسة المتألقة التى تشع فى الظلام أضواءً تكشف عن وجود أشياء أخرى ...

والأديب أو الفنان قد يعبر عن الحياة ، ولكنه لا يفسرها ... أى أنه قد يجيد وصفها بالحالة التى هى عليها ، أو يجملها بوشى مصطنع ، أو يقبحها بتشويه مقصود ، وهو فى كل هذه الأحوال يريد اللهو بأداة التعبير تارة، أو استخدامها للدعاية تارة أخرى ...

ولكن الوقوف عند حدود التعبير ليس كل مهمة الأديب أو الفنان التعادلى ... لأن التعبير وحده على علو قيمته الأدبية والفنية ، قد يحبس أهداف الأدب والفن فى نطاق التهذيب الروحى والإمتاع النفسى ، ومهما يكن نبل هذه الأهداف وكفايتها ، فإن المطلوب من الأديب أو الفنان — خصوصاً فى العصر الحديث — أن تمتد رسالته إلى أبعد من هذا النطاق .

المطلوب منه هو أن يهذب ويمتع ، ثم يلقى فى نفس الوقت ضوءاً كاشفاً موجهاً فى طريق الإنسانية .

فالأدب أو الفن يجب أن يكون معبراً ومفسراً : أى أن تتعادل قوى التعبير وقوى التفسير فى الأثر الأدبى أو الفنى ... فإذا طغت قوة التعبير طغياناً بالغاً ، فإن قسطاً هاماً من رسالة الأديب أو الفنان لم يبلغ للناس ... وإذا طغت قوة التفسير حتى كادت تتلاشى بجانبها قوة التعبير ، فإن صفة الأدب أو الفن ذاتها تهدد بالانهيار ... إذ لا بد لوجود أى أدب

أو فن من ضمان قوة التعبير قبل كل شيء ... فموهبة التعبير الأدبي أو الفني ، أي بالاختصار : الأديب أو الفنان يجب أن يوجد أولاً بأداة أسلوبه الرائعة البارعة القوية قبل النظر في أمر الرسالة التي سيحملها .

التعبير يشمل الأسلوب والموضوع : أي الشكل والمضمون . وبه يمكن أن يتم الأثر الأدبي أو الفني في ذاته ...

أما التفسير ، فهو الرسالة التي يحملها الأثر الأدبي أو الفني بعدئذ للبشرية ، ليقول فيها كلمته عن وضع الإنسان في كونه وفي مجتمعه .

وليس كل أثر أدبي أو فني يحمل تفسيراً أو رسالة في هذا الشأن ، فكثير من الآثار رسالته هي في مجرد روعة تعبيره ... فالبحتري مثلا هو تعبير ... في حين أن أبا العلاء تعبير وتفسير معاً ، لأن الكثير من شعره يحمل إلينا رأيه في وضع الإنسان ومصيره ... وشيكسبير هو في شعره الغزلي

تعبير ، أما فى مسرحياته — مثل « هاملت » وغيرها — فهو تعبير وتفسير معاً .

وبيتهوفن فى « سوناتا ضوء القمر » هو تعبير ... بينما هو فى السنفونية الثالثة يحمل إلينا كلمته فى الإنسان والبطولة ، وفى السنفونية الخامسة ينقل إلينا قولته فى الإنسان والقدر ... وكذلك فى السنفونية التاسعة وفى كثير من كونسيرتاته يريد أن يقول لنا شيئاً أكثر من مجرد اللحن الجميل .

والتعبير وحده قد يؤدى إلى « الفن للفن » إذا أسرف فى الهيام بجمال الشكل والتأنق فى المبنى على حساب المعنى والمضمون .

والتعبير وحده كذلك قد يؤدى إلى « الفن الملتزم » إذا أسرف فى التقيد بمعنى خاص ومضمون معين ليس إلى التحرر والاستقلال عنهما من سبيل .

فالفن للفن هو حبس الفنان فى هيكل الشكل .

والفن الملتزم ؛ هو حبس الفنان فى سجن المضمون .

والسجن فى الحالين يمنع الفنان من تبليغ رسالته كاملة ... تلك الرسالة التى تنبع من الحرية دائماً ، لتبشر بالحرية .

ثم تسألنى بعد ذلك :

هل الحرية فى الأدب أو الفن مناقضة للإلتزام؟ أليس للأديب أو الفنان أن يلتزم برأى يدافع عنه ويبلغه الناس ؟... وما دمنا نقول إن للأدب أو الفن المعبر المفسر رسالة يحملها للبشرية ، فكيف تكون رسالة بغير التزام بالتبليغ ؟ ...

ما من شك فى أن مجرد حمل رسالة معناه التزام بتبليغها... ولكن الخلاف دائماً هو فى مصدر الرسالة التى يحق للفنان أو الأديب الحر أن يحملها؟ ...

هل يحق للمفكر الحر أن يحمل رسالة تصدر من سلطة « العمل » ؟ ... فى هذه الحالة سيكون مجرد آلة مسخرة ، لا أداة مفكرة ... وإذا آمن حقاً بهذه الرسالة ، هل يجوز له الالتزام ؟ ... فى رأيى نعم ...

ولكن من جهة أخرى : الإيمان الطويل الأمد هو بالنسبة إلى الفكر عاهة ... لأن الفكر السليم هو الفكر المتحرك ... وحركة الفكر معناها حرية شكه ... وحرية الشك معناها حرية المراجعة للقيم والأوضاع ...

فإلى أى مدى إذن يباح للمفكر أن يراجع الرسالة التى التزم بحملها ؟ ...

فإذا قيل له : لا تستطيع أن تراجع أو تناقش أو تتحلل بما التزمت به ، فمعنى ذلك هو إلغاء الفكر وتحويله إلى إيمان ...

فنحن إذن أمام مشكلة :

لأن الالتزام الطويل الأمد برأى معين يؤدى إلى الإيمان ... والإيمان يؤدى إلى تعطيل الفكر ... والفكر يجب أن يتحرك ليوجد المفكر ... والمفكر إذا فكر ناقش الالتزام ، وقد تؤدى مناقشة الإلتزام إلى التحلل منه ...

لذلك عندما ينبع الرأى الملزم من سلطة العمل ، أى سلطة

حاكمة ؛ فإن مناقشة الإلتزام لا تباح ولا تشجع ... فيصبح الرأى شبه إيمان ...

ولكن الإيمان فى الرسالات السماوية مقبول ، لأن الأمر كله متعلق بموضوع علوى بعيد عن متناول الفكر ، فنحن عندما نؤمن بفكرة الله قد رضينا مختارين أن نلتزم بتعطيل التفكير فى ماهيته وفى حكمه . واكتفينا بالإيمان ، لعلمنا أن فكرنا البشرى لا يصلح أداة لإدراك قوانين من هو فوق البشر !...

ولكن السلطة الحاكمة أو السلطة الممثلة للعمل فى دولة من الدول ، لماذا نعطل أمامها فكرنا ونلتزم برأيها مؤمنين بها الإيمان الذى لا يقبل التمحيص ولا المناقشة ولا المراجعة ؟ ... فالالتزام الدائم إذن برأى صادر من سلطة بشرية هو نوع من الإيمان لا يجب أن يفرضه بشر على بشر ...

أما الالتزام المباح فى نظرى للمفكر أو الأديب أو

الفنان، فهو ذلك الذى لا يعطل تفكيره الحر، ولا يمنعه من أن يناقشه ويراجعه ويعدّله فى أى وقت شاء، سواء كان هذا الالتزام صادراً عن رسالة خاصة له، أو رسالة عامة للدولة كلها، أو لحزب فيها ....

ولقد سبق لى أن عرضت موقفى تجاه الإلتزام فى الأدب ... فقلت فى كتابى «فن الأدب»: «إن الأديب يجب أن يكون حراً... لأن الأديب إذا باع رأيه، أو قيّد وجدانه؛ ذهبت عنه فى الحال صفة الأديب. فالحرية هى نبع الفن ... وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن ... لأن الذى يقول لفنان أو أديب: التزم بكذا أو بكيت فقد قتله ... إنما التزام الأديب أو الفنان شىء ينبع حراً من أعماق نفسه ... فإن لم ينبع الالتزام حراً من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه أنت ولا تلزمه قوة فى الوجود ... يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان ... فالإلتزام المثمر للفنان فى رأيى هو الإلتزام الذى ينبع من

طبيعته ، وهنا لا يتعارض الإلتزام مع الحرية ... قد تسألنى عن مدى انطباق هذا الرأى على ما كتبت ؟ ... فأقول لك : ارجع كذلك إلى كتابى « فن الأدب » فقد ذكرت فيه : أن الموقف مختلف كل الاختلاف فيما يختص بإنتاجى أنا على وجه خاص ، فعلى الرغم من مناداتى بالحرية ، فإن عملى فى أكثر كتبى هو من الأدب الملتزم ... إنى منذ أمسكت بالقلم ما حاولت قط أن أنشىء لنفسى أسلوباً جميلا يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين ... هذا الفن للفن فى الأسلوب ما خطر لى أن أمارسه ، ولكنى أردت أن أتخذ من الأسلوب خادماً لأهداف أخرى غير مجرد الإمتاع ... هذه الأهداف — كما ظهرت واضحة للناس — كانت قومية وشعبية وإصلاحية فى « عودة الروح » وفى « عصفور من الشرق » وفى « يوميات نائب فى الأرياف » وفى « مسرح المجتمع » إلخ ... وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان : فى « أهل

الكهف » وفى « شهرزاد » وفى « سليمان الحكيم » وفى « بجماليون » وفى « الملك أوديب » إلخ ... فهذه القصص لم تكتب لإظهار جمال الأسطورة ، كما كتبت « مجنون ليلى » لشوقى ، فأظهرت جمال الشعر والعواطف والشعور ، وأبرزت روعة الفن للفن نفسه ، إنما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة لهدف آخر ، لا غاية فى ذاتها ... قضية خاصة بالإنسان ومصيره ...

فأنا فى الحقيقة لم أكتب لأعبر فقط ، بل لأفسر ... ولقد كان من الممكن أن تكون « عودة الروح » مثلا مجرد قصة تصور الحياة فى حى السيدة زينب بين أسرة متواضعة ، وتخلق أشخاصاً نابضين بالحياة يعيشون فى صميم بيئتهم ، وفى هذا الكفاية من حيث الفن ، لأن خلق الحياة هو عمل فى الفن كاف ... ولكنى ألزمت نفسى بتفسير خاص للروح المصرية فلم تنته مهمة القصة عند حد التعبير والتصوير لبيئة وأشخاص ؛ بل اتخذت موقفاً ينم عن رأى معين ؛

وهذا الرأى استخلصه النقاد الأجانب من زوايا مختلفة ، وإن كان واحداً فى جوهره ، فالناقد « جان ديستيو » قال :

« إننا نلمس مؤلفاً من تلك المؤلفات التى لو وجدت عندنا لنعتها « موديس بريس » بقصة النشاط القومى ، وليس لمدلولها غير تفسير واحد : هو أن الروح العائدة إنما هى « روح فلاحى مصر العريقة فى القرية » ... وقال الكاتب اليسارى النزعة « مارسيل مارتينيه » : إنه لمن الظاهر فيه — فضلا عن ذلك — وجود بعض عناصر أدب « الطبقات الفقيرة » أو على الأقل أدب شعبى لاشك فيه » ... وقالت الكاتبة « تيريز ميربان » : « إن عودة الروح » ليس مؤلفاً وليد الخيال ، ولكنه مستند على الحالة الاجتماعية لشعب فى حالة تطور سريع ... » .

فعودة الروح ليست إذن قصة تصور حياة ، ولكنها بعد ذلك قصة تفسر حياة ، وتفسير حياة شعب معناه اتخاذ رأى معين تجاه هـــذا الشعب ... ولقد كان لفكرة

الرواسب القديمة التى تراكمت على مدى الحضارات المختلفة فى أعماق الشعب المصرى ؛ فكونت منه قدرة خفية تسعفه فى أزماته وترّد إليه روحه كلما استهدف لخطر التلاشى والانهيار ... هذه الفكرة التى اعتنقتها القصة كان لها أثر — كما لاحظ بعض نقادنا — فى مجال « العمل » : أى السياسة . هذا التفسير أيضاً : أى الرأى والموقف تجاه الحكام والمحكومين قد ظهر فى « يوميات نائب فى الأرياف » ، فهى ليست مجرد تصوير لحياة الفلاح ، ولكنها كما قالت صحيفة « سبكتاتور » الانجليزية : « إن فى هذا الكتاب عن مهزلة الفساد الاجتماعى أكثر من مجرد استنكار ، وكما حدث مع كتاب الروس فى القرن التاسع عشر ، وكما حدث مع كاتبنا « ديكنز » يشعر الكاتب المصرى أن مجرد العطف لا يكفى ... الخ » .

من هذه التعليقات التى أذكرها ، تستطيع أن تجد

جواباً عن سؤالك ، وتعرف اتجاهي من كتبي نفسها كما طلبت ...

وهنا أذكر أيضاً ملاحظة لأحدهم فى تفسير مسرحياتى الذهنية بأنها تكشف عن عجز الإنسان تجاه مصيره ، فقد رأى أن هذا الوضع للإنسان سبق أن أبرزه سوفوكل فى « أوديب » إبرازاً صادقاً ... كما أظهره شكسبير فى « روميو وجولييت » على أروع صورة ... فالآلهة قد أرادوا عامدين أن يحطموا أوديب ... والقدر تدخل تدخلاً مباشراً على شكل مصادفات متلاحقة فرقت بين روميو وجولييت ... ولكن الذى تم عندى فى رأيه هو أنه لم يحدث أى تدخل مباشر ، لا فى هيئة إرادة علوية متعمدة ، ولا فى صورة مصادفات طارئة ؛ بل هى قوانين خفية تسير فى اتجاهها العادى ، فتحد من إرادة الإنسان ... فقانون الزمن فى « أهل الكهف » يعمل عمله المعتاد فيسير قدما ولا يغير اتجاهه ، ولا يعود إلى الوراء ثلثمائة عام ليجمع

بين مشلينيا وبريسكا ... فالقوة التى فرقت بين مشلينيا وبريسكا ليست هى القوة القدرية المعاكسة التى فرقت بين روميو وجولييت ، فجعلت المصادفة فى أول الأمر تدفع روميو إلى قتل ابن عم جولييت ، ثم جعلت المصادفة فى آخر الأمر تحدث طاعوناً يعطل الرسول الحامل إلى روميو رسالة بما يدبر ، بما أدى إلى المأساة ... كلا ... إن المأساة المفرقة بين الحبيبين فى « أهل الكهف » هى قوة طبيعية ... هى قوة الزمن : أى المجتمع الجديد ... فبريسكا أيقنت أن من المستحيل أن يقبل مجتمعها فكرة الجمع بينها وبين رجل عاش منذ ثلثمائة عام ... قوة المجتمع هذه ظهرت كذلك عندى فى مسرحية « الملك أوديب » ... فهو عندما قيل له إنه متزوج بأمه لم يتصور ذلك ، لأنه لم يرها إلا امرأة فى تمام نضجها فأراد أن يصمد كما أراد مشلينيا أن يصمد ، وأن يتحدى وأن يبقى على أسرته ، ولكن جوكاستا — شأنها شأن بريسكا — لم تستطع تحمل هذا

الخاطر ... إن قوانين المجتمع المتأصلة فى أعماق كيانها قد حكمت عليها بالفناء ، فشنقت نفسها ...

إرادة الإنسان عندى إذن حرة فى حدود خاصة ، وهذه الحدود هى قوانين ، وليست إرادات طاغية .. هى نواميس ، وليست مصادفات طارئة ... فالإنسان عندى عاجز حقاً أمام مصيره فى النهاية ... هذا المصير الذى تدفع إليه قوانين ونواميس يحاول دائماً أن يتخطاها أو يحطمها ... نعم ... إن من يمعن النظر فى هـــذه المسرحيات يجد مشلينيا يحاول ذلك ويمكث يكافح ليقنع بريسكا بتجاهل عقبة الزمن ... ونجد شهريار يحاول تحـــدى النواميس بمحاولة تحطيم بشريته ... وتجد سليمان يحاول تحدى قانون الحب واقتحام قلب بلقيس ، وأوديب أراد تحدى المجتمع والبقاء مع أمه زوجا ... وبجماليون أراد تحدى الآلهة وتحطيم التمثال الذى أفسدوا فنه بما نفخوه هم فيه من روحهم ... جميع هؤلاء الأشخاص لم يستسلموا لمصـــيرهم إلا بعد التحدى والنضال

والكفاح ... ولقد أرغموا إرغاماً على التسليم فى آخر الأمر ... لأن القوى المسيطرة ليست من صنع البشر ... ولكن يبقى الكفاح — ولو ضد المستحيل — وهو وحده واجب البشرية ...

التفسير إذن فى الأثر الأدبى أو الفنى هو مناط المسئولية ... لأنه هو الرأى ، وهو الموقف ... وما دام هناك رأى ، فهناك التزام به ، ومسئولية عنه ...

أما التعبير فهو حر طليق كالحياة نفسها ، ما لم يقيد نفسه كما قلنا بالمغالاة فى الشكل فينحرف إلى الفن للفن أو يحبس نفسه فى مضمون دائم معين بالذات فيصبح شأنه شأن الفن الملتزم ...

وهنا قد يخطر على بالك سؤال :

ما هو الفرق بين الإلتزام فى التعبير والإلتزام فى التفسير ...

ما دام كل منهما يمكن أن يؤدى إلى الفن الملتزم ؟...

جوابى : هو أن الإلتزام فى التعبير قد لا يعكس رأياً خاصاً ، فالموقف هنا هو مجرد الارتباط بموضوع بالذات...

كأن يعكف الأديب أو الفنان على تصوير طبقة معينة من طبقات الأمة لا يحيد عنها ... ولكنك لا تلمس من خلال هذا التصوير والخلق فى هذه البيئة المعينة : أى اتجاه شخصى أو رأى خاص ... أعنى أى تفسير بعينه ...

فى حين أن الإلتزام فى التفسير لا يتقيد بالموضوع ... ولكنه يتقيد بالرأى ... فالأديب أو الفنان هنا يعالج الموضوعات المختلفة ويصور الطبقات المتباينة ، ولكنك تخرج من أعماله كلها بتفسير خاص : أى برأى وبموقف وباتجاه ...

وكما قلنا : حيث يوجد الرأى توجد المسئولية ... ولكن المسئولية ، كما عرفنا ، لا تنبع إلا من الحرية ... لأن المقيد غير مسئول ...

فكيف نوفق إذن بين الالتزام والمسئولية و « الحرية » ؟ ...

لا يمكن التوفيق إطلاقاً إلا إذا كان الرأى رأيك

أنت ، والإلتزام به نابعاً من طبيعتك أنت ، كما سبق أن قلت لك ... أى أن الرأى والالتزام يجب أن يكونا صادرين من صميم حريتك ، لتكون مسئولا عنهما مسئوليتك عن حريتك ... مسئول أمام من ؟ ... أمام نفسك وحدها التى منها خرج الرأى حراً ...

وها هنا كل الجوهر فى كيان المفكر الحر :

الرأى رأيه ، ومسئوليته أمام نفسه .

فإذا كان الرأى صادراً من سلطة العمل : أى سلطة الحكم ، وكانت المسئولية أمام هذه السلطة أيضاً ، فما هو القول ؟ ...

لا قول سوى أن «الفكر» بمسئولياته يكون عندئذ قد نحى جانباً ليقوم «العمل» وحده بالأعباء والتبعات ... ولقد قلتها فيما سبق : « إن أزمة العالم اليوم مردها إلى أن سلطة العمل قد اغتصبت المسئولية الكاملة فى إدارة دفة الدنيا وتوجيه مصائر البشر » .

ما من أحد اليوم يستطيع الزعم بأن « الفكر الحر » هو الذى يوجه عالمنا الحاضر ... لقد اضطهد علماء الذرة الذين رفضوا الرضوخ لأوامر السلطات الحاكمة ، رغبة منهم فى إنقاذ البشرية ونزولا على حكم مسئولياتهم أمام أنفسهم وضمائرهم .

أما بقية العلماء والمفكرين فقد أذعنوا وساروا وتعاونوا .

فى كل دول الأرض نجد سلطة العمل متفاهمة متحدة فى وضع واحد : هو إخضاع الفكر لخدمة أغراضها .

هذا الاتحاد والتفاهم من جانب « العمل » يقابله اختلاف وانشقاق من جانب « الفكر » .

ماذا لو استطاع « الفكر » فى كل أمم العالم أن يتحد ويتفاهم ويوحد سلطانه ، ويقول كلمته الحرة فى وضع البشرية ، ويحمل مسئوليته أمام نفسه وحدها ، ويرفض فى وقت واحد ، فى كل رقعة من الدنيا ، أن يتعاون مع

سلطات العمل فيما يعتقد ويقرر أنه ضار بمصلحة الإنسان والإنسانية ؟ ...

ماذا لو وقف الفكر كله فى الدنيا كلها هذا الموقف الموحد ؟ ... أترك التقدير لك ...

من هنا جاء إصرارى على احتفاظ سلطة الفكر بحريتها واستقلالها تجاه سلطة العمل ، وقد طبقت هذا المبدأ حتى الآن على شخصى تطبيقاً صارماً ... فابتعدت عن محيط السياسة العملية ، ورفضت الانضمام إلى الأحزاب السياسية ، واعتبرت المفكر كالراهب ، مسوحه هى حريته ... وتحدثت عن البرج العاجى والاعتصام به ... ولم أقصد بذلك طبعاً العزلة عن الحياة والانفصال عن المجتمع ، كما فهم البعض خطأ ، ولكنى قصدت عزل رجل الفكر عن السياسة الحزبية ، حتى لا يستخدم آلة مسخرة فى أيدى رجالها ، فيفقد بذلك حرية النظر الحر إلى الأشياء ...

هذا الإصرار منى ، على الرغم من الظروف المواتية التى عرضت لى مراراً للانخراط فى سلك حزب ، والوصول به إلى السلطان العملى ، قد بلغ أحياناً حد الغلو والإغراق ...

ولكن الفكرة التى استولت على رأسى ، ولم تزل ، هى : أن مسئولية المفكر الحر الحقيقية إنما هى أمام نفسه وحدها لا أمام حزب من الأحزاب ، ولا حاكم من الحكام ... وأن المفكر الذى يترك مكانه لينضوى تحت لواء سلطة العمل الممثلة فى حزب أو حكم هو مفكر هارب من رسالته ... وأن هذا الهروب إلى معسكر الساسة والحاكمين هو الذى جرّد الفكر من سلطانه ، وجعل منه تابعاً لا متبوعاً ...

ولم يخطر فى بالى قط أن أعزل الفكر عن أى نشاط سياسى أو اجتماعى ... فالعزلة التى دعوت إليها هى العزلة عن السياسيين لا عن السياسة ، وعن الأحزاب لا عن المجتمع ... فالفكر فى كل ألوانه من أدب وقصص وفن يجب فى نظرى أن يعنى بكل ما يجرى فى مجتمعه وعصره من شئون السياسة والاجتماع ... لأنه ما دام يعنى بالبشرية ، وما دامت البشرية متصلة بالسياسة والمجتمع ، فلابد للمفكر أو الأديب أو الفنان أن يعيش عصره كله ومجتمعه كله

بما فيهما من شئون سياسية واجتماعية ... لأن تلك هي البشرية ... وفي كتبي : تحت « شمس الفكر » و « شجرة الحكم » و « تأملات في السياسة » و « پراكسا أو مشكلة الحكم » ... الخ ... خلاصة وافية لموقفي من السياسة والمجتمع ...

قال أحدهم : إن موقفي لم يتخذ وضعاً عملياً ...

وهذا صحيح ... لأن هذا بالذات هو مذهبي ، فمذهبي يرفض رفضاً قاطعاً أن يغير الفكر صفته ، وأن ينقلب عملاً ...

وإني حتى الآن لم أفقـــد الأمل في قوة الفكر باعتباره سلطة مستقلة لها مقوماتها الخاصة وصفتها الذاتية ... وعندما أفقد هذا الأمل ، سألتمس في الحال المعونة صاغراً لدى « العمل » ... وعندئذ أسير في اتجاه بعض المذاهب الأدبية والفنية التي خضعت للعمل أو اندمجت فيه ، فأصبح من العسير عليها أن تنفض عنها بعض غبار الدعاية أو التسخير

الذى لحق بها بالباطل أو بالحق ...

قد تسألنى إلى أى مدى يستطيع الفكر المستقل أن يؤثر فى « العمل » ؟ ...

ما من شك عندى فى أن الفكر المستقل يؤثر إلى مدى بعيد فى « العمل » ... أبعد بكثير من أثر الفكر المندمج أو الخاضع للعمل ...

لأن الفكر المندمج أو الخاضع يصبح حزباً أو تابعاً فى محيط الحكم السياسى ، وبذلك يفقد هيبته وكلمته ، لا فى نظر الأحزاب الأخرى ، بل فى نظر حزبه نفسه أحياناً ... فلا يسمح له بالتوجيه أو بالإيحاء ؛ بل يتلقى تعليمات رؤساء العمل للسير بمقتضاها ...

وقد تسألنى بعد ذلك : هل كان لموقفى المستقل أثر فى « العمل » ؟ ...

الحقيقة أنى لا أستطيع أن أجيب بنفسى إجابة قاطعة ؛ فمن العسير علىّ أن أعرف أثر كتاباتى فى الغير على وجه عام...

ولا أعتقد أن كتاباً مثل « يوميات نائب فى الأرياف » كان له أثر مباشر فى إصلاح بعض ما أبرزه من عيوب الحكم والقضاء والإدارة فى الريف ... وإن كنت أعلم أن كثيراً من رجال الدولة قد طالعوه ...

على أن رأيى دائماً فى رجال الفكر والأدب والفن أنهم ليسوا مطالبين بالإصلاح المباشر ... إن مهمتهم الحقيقية هى أن يعدّوا ويهيئوا رجال العمل والدولة والحكم للقيام بالإصلاح ... لقد قلتها يوماً فى كتاب لى : « إن الأديب أو الفنان ليس مصلحاً ، ولكنه مصلح المصلح » ...

غير أنى أستطيع رغم ذلك أن أقول إنى رأيت مرة أثراً مباشراً لكتابتى فى أمر من أمور المجتمع ... فقد كتبت ذات يوم أقترح إنشاء وزارة لشئون المجتمع ، كما اقترحت أسماء وزراء بالذات ، من بين الموظفين الأكفاء ، فما انقضى شهران حتى تقلد الحكم رجل من رجال الدولة فنفذ الاقتراح وأنشأ وزارة أطلق عليها اسم « وزارة الشئون

الاجتماعية» ، واختار عين الموظفين الذين اقترحتهم وزراء في حكومته ... كيف تم هذا ؟ ... لا ريب أن استقلالي الفكري يسر كل ذلك ... فلو أني كنت كاتباً حزبياً لما أوحيت بهذه الثقة ... ولكانت أسماء الذين اقترحتهم محل ظنون ، ولكان الاقتراح كله موضوع سخرية متحدية وريبة مستعلية ... إن « الفكر » المستقل الحر يستطيع دائماً أن يكون سلطة هامة معادلة وموازنة لسلطة « العمل » ... وفي هذه الحالة يكون في مقدور « الفكر » أن يصبح قوة دافعة وموجهة ومطورة لسلطان « العمل » ...

هذا مذهبي ...

قلت لك إن التعبير هو موهبة الخلق والإبداع ...

وإن التفسير هو الضوء الكاشف لوضع الانسان ...

ولأوضح مرة أخرى هذا التعريف :

إذا كنت تعبر عن الحياة ولا تفسرها ، فأنت أديب أو فنان ...

وإذا كنت تملك تفسيراً للحياة ، ولا تملك موهبة التعبير عنها فأنت أى شيء إلا الأديب أو الفنان ...

وإذا كنت معبراً ومفسراً للحياة ؛ فأنت أديب أو فنان ذو رأى وموقف واتجاه ، ومن ثم فأنت مؤثر بطريق ما فى التطوير والتوجيه ...

هناك مع ذلك حالات يستطيع فيها التعبير وحده، إذا كان بالغ القوة، أن يحدث أثراً موجهاً مطوراً بطريق غير مباشر...

كما أن هناك ، كما سبق أن أشرت ، حالات يفسد فيها

التفسير روعة التعبير ، إذا خرج عن حدود التناسق الفنى ، وعندئذ يبطل تأثيرهما معاً ، لأن الأثر الأدبى أو الفنى يبدو عندئذ مفتعلا افتعالا مضيعاً لجوهر وجوده وهو الصدق...

والمقصود بالصدق هنا هو الصدق الفنى ، أى الشعور المنبعث فى نفوسنا بأن الأثر الأدبى أو الفنى قد ولد ولادة طبيعية ، ولا يمكن بالطبع أن تكون الولادة طبيعية إلا إذا خرج الأثر الأدبى أو الفنى متناسق الأجزاء متناسب الأعضاء ... فإذا طغى فيه جزء على جزء فإنه يعتبر مسخا مشوها ، حتى وإن كان جميل الوجه ...

من أجل هذا كله كان الشرط الضرورى لحياة التعبير والتفسير معاً هو إيجاد التناسب والتناسق بينهما أى : التعادل ...

قلت لك أيضـــاً إن سلطان الفكر يجب أن ينهض معادلاً لسلطان العمل ، فما هو المقصود بالفكر هنا ؟ ... هل هو العقل وحده ؟ هذه نقطة تحتاج كذلك إلى توضيح ، فالفكر المعادل والموازن للعمل إنما يشمل عندى القوى العقلية والقوى الروحية معاً ، خصوصاً فى نطاق الأدب والفن ... وهذه مسألة تختلف فيها المذاهب الأدبية والفنية المعاصرة ... فأكثرها يطرح القوى الروحية أو الدين ، ولا يستبق غير القوى العقلية يستمد منها وحدها كل عناصر نشاطه ... من ذلك وجودية سارتر ، والواقعية الاشتراكية ، وغيرهما من المذاهب التى يصفونها بالمادية لأنها تقصر قوى الفكر فيها على العقل بمنطقه وحده ...

أما التعادلية فتطلق « الفكر » على قوتين ... هما العقل والقلب ، أعنى « المنطق » و « الإيمان » ، باعتبارهما

منبعين للمعرفة البشرية ؛ لأن الحيـــوان الذى لا يعقل ولا يؤمن لا يملك غير منبع واحد للمعرفة هو : الغريزة ... والحيوان لا يؤمن ، لأنه — كما أشرت — لا يدرك معنى الأرقى ...

فالإنسان : الكائن الوحيد الذى يدرك ويعى الأرقى ، إنما يتوسل إلى هذا الإدراك والوعى بوسيلتين : المنطق المنبعث من العقل ، والإيمان المنبعث من القلب ، الأول عكازه الدليل البين، والآخر عكازه الشعور الخفى ...

وما دامت هاتان الوسيلتان قد منحتا للإنسان ، فلا بد إذن من بقائهما وتقويتهما وإنمائهما والبلوغ بهما أقصى حدود القدرة ، كل منهما فى مجاله ...

وقد سبق أن أشرت كذلك إلى أن الخلط بينهما عبث ... كما أن إخضاع كل منهما لمقومات غيره عبث أيضاً ... فالعقل يجب أن يشك دائماً ويطالب بالدليل ... والقلب يجب أن يؤمن دائماً ويعفى من الدليل ...

كل منهما يجب أن يجرى فى فلك مستقل ، وفى مجال نشاط مختلف ... فالقضاء على أحدهما لمصلحة الآخر تعطيل لإحدى ملكات البشرية ... وتدخل أحدهما لخنق حرية الآخر عرقلة أيضاً لسير الإنسانية ...

والتعادلية ترى إلى بقاء كل منهما موازناً للآخر ، كما يتوازن كوكبان يدور كل منهما حول نفسه ... ثم يسيران بعد ذلك معاً إلى الأمام فى عين المجرى ...

وقد سبق أن بينت فى كتابى « تحت شمس الفكر » فى فصل بعنوان « منطقة الإيمـــان » كيف أن العقل والإيمان يمكن أن يعيشا جنباً إلى جنب فى كيان الإنسان ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، أو يؤثر فى أسلوبه وهدفه ...

وبأشعة العقل ومنطقه ، وحرارة القلب وإيمانه ، يستطيع الآدمى أن يحيا حياته الكاملة ...

ولعل أزمة الحضـــارة الحديثة علتها — كما قلت

أيضاً — أنها لم تحقق للإنسان حياته الكاملة ؛ فهو على الرغم من تألق العقل البشرى على نحو لم يسبق له نظير ، يشعر بنقص ، وهذا النقص يبعث فيه القلق ، أو على الأقل ، بعض هذا القلق الذى أصبح من سمات هذا العصر الذى نعيش فيه ...!

والآن فلأخص لك التعادلية فى هذه المبادىء الخمسة :

أولا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد : أن الوجود هو التعادل مع الغير ... الأرض لا تكون بغير تعادلها مع الشمس ... لا يوجد مخلوق وحده ... كل كائن ، وكل صفة ، وكل حالة ، وكل وضـــع لا يوجد فى عالم المحسوسات ولا فى عالم المعانى إلا بالنسبة إلى غيره ... لا بد من غيرك لتكون أنت ... التعادلية إذن تقوم على الغيرية ... والوجود التعادلى يتلخص فى هذه العبارة :

« بغير الغير لا يوجد وجود » ...

ثانياً — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد أن الفكر يجب أن يكون معادلا للعمل ، وأن مسئولية « الفكر » هى فى حريته واستقلاله تجاه « العمل » ...

وهذا مخالف لرأى المذاهب التى ترى اندماج الفكر فى العمل أو خضوعه له ... فالتعادلية متفقة مع الوجودية ومع الواقعية الاشتراكية وغيرهما من المذاهب التى ترتكز على مسئولية الفكر فى التوجيه والتطوير ... ولكنها تختلف عنها فى أنها تدعو إلى استقلال الفكر عن العمل ، ولا تبيح لرجل الفكر أن يندمج فى العمل ، كما هو الحال فى وجودية سارتر ، الذى عمل بنفسه مع زملاء له على تكوين حزب سياسى ، كما عمل على مؤازرة أحزاب اليمين تارة وأحزاب اليسار تارة أخرى ... كذلك لا تبيح التعادلية لرجل الفكر أن يخضع الفكر للعمل ، كما هو الحال فى البلاد ذات النظم التى لا تسمح للفكر أن يتخذ رأيا أو موقفاً لا يساير الاتجاه المرسوم ...

أنت إذن تعادلى إذا كانت مسئوليتك هى أن تجعل من الفكر « قوة » حرة بأداتها المستقلة وأسلوبها الخاص لتعادل وتوازن قوة « العمل » بأداته وأسلوبه ...

ثالثاً — أنت تعادلى إذا اعتقدت أن الخير والشر وضعان للإنسان ... وأن الخير يجب أن يعادل ويوازن الشر، وأن جزاء الشر ليس الاقتصاص من حرية الشخص... لأنه لاموازنة بين الشر والحرية ، إذ لاعلاقة البتة بينهما ... إنما العلاقة هى بين الشر والخير ... فالجزاء إذن هو عمل خير يوازن ويعادل ما ارتكب من شر ... كما أن الضعف والنقص حالات لها كذلك ما يقابلها من قوى معوضة معادلة ، على الإنسان أن يستخرجها من مكامنها فى نفسه ...

رابعاً — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد أن العقل بمنطقه وشكه يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وإيمانه : أى أن الشك يمكن أن يعيش مستقلا موازناً للإيمان ...

خامساً — أنت تعادلى إذا كنت ترى أن الأثر الأدبى أو الفنى يجب أن يقوم على التعادل والتوازن بين قوة

التعبير وقوة التفسير ...

* * *

قد تسألنى : ما هو مستقبل الفكر المعادل للعمل ؟ ... فأقوله لك متفائلا : إنى أرى المستقبل كله له ... لأن هذا هو الوضع الطبيعى ، وإذا كنا إلى هذا العصر نجد الفكر تابعاً للعمل : أى السلطان ، فإن ذلك لن يكون فى الغد ... فإنى أتنبأ للفكر فى العصور القادمة بقوة عظيمة تنبع من ذاته ، كما تنبع الطاقة من ضوء الشمس ، فتحرك بقوتها المركزة الذاتية مصائر البشر نحو الأهداف العليا التى يرسمها الفكر بعيداً عن أغراض السلطان ، ويكون له من النفوذ والإيحاء مايرد سلطة العمل إلى الصواب إذا انحرفت وجارت ، دون أن يفقد صفته الخاصة فينقلب عملا ، أو يتخذ أسلوب رجال السياسة فيصبح جدلا ...

* * *

قد تسألنى كذلك : ما هو مستقبل التعادلية فى علاج

الإنسان ؟... فأقول لك متفائلا أيضاً :

إن التعادلية باعتبارها مذهب يقاوم الضعف والعجز والنقص والقبح ، بإيمانها بوجود القوى المعوضة الموازنة : أى المعادلة ، وبإعلانها طريقة واضحة للمقاومة ، وهى نهوض الإنسان — سواء كان فرداً أو شعباً — للكشف عن القوى المعوضة المعادلة وإظهارها وتنميتها ... هذا المذهب يلغى أثر الضعف والعجز ، عن طريق استخراج المعوض والمعادل ... كل شعب أو مجتمع أو رجل أو امرأة أو فنان أو عامل أو أديب الخ ... يجب أن يسأل نفسه هذا السؤال ، إذا أحس من نفسه عجزاً طبيعياً أو نقصاً خطيراً : ما دمتُ عاجزاً ضعيفاً فى هذه الناحية ، فلا بد أنى قوى قادر فى ناحية أخرى ... ما هى ؟...

لا يوجد إنسان ضعيف ... ولكن يوجد إنسان يجهل فى نفسه موطن القوة المعوضة ...

قم وقاوم ... وابحث عنها وكافح لإظهارها وتنميتها ،

لتعادل بها عجزك وضعفك ... يوم تنهض الإنسانية كلها تفعل ذلك ... كم من مناجم للقدرة ستتفجر لتعوض عن مآسي العجز البشرى .

أما بعد ... فأظن أنى قد أوجزت لك موقفى فى خطوطه الرئيسية ... فإذا أردت تفصيلا فعليك أن تستخلصه بنفسك . وهذا ميسور لك إذا أعدت قراءة كتبى على هذا الضوء ... ولا أقصد بالطبع كل ما كتبت ... فما من كاتب يستطيع أن يتقيد فى كل أعماله بعين الفكرة ... وإلا كان مجنوناً ... فالجنون أحياناً هو الجمود على فكرة معينة ... ولكنى أقصد الكتب التى تحمل رسالة الكاتب ... وهى التى يجب أن تقرأ قراءة مستكشفة ... وهذا أمر لا يستطيعه كل القراء ... ومن هنا كانت القراءة فى بعض الأحيان فناً ... بل أداء إيجابياً معادلا للكتابة لأن القارىء المكتشف يخلق شيئاً ... شيئاً موجوداً من قبل ، ولكنه مجهول ... وما قيمة الموجود إن لم يكن معلوماً ؟؟ ...

شأن القارىء المكتشف للمعانى والاتجاهات شأن الرحالة

المكتشف للجزر والقارات ؛ إنها مخلوقة قبل رحلته ، ولكنه هو الذى أخرجها من ضباب يشبه العدم إلى نور أوجدها فى نظر النـــاس ... لذلك كانت نعمة الكتب قرّاءها ، وآفة الكتب قراءها أيضاً ... فمن القراء من يشبه البحّار الجاهل الذى يسير بغير بوصلة ولا يعرف شماله من جنوبه ، ولا يحسن إلا أن ينشر شراعه وينطلق فى بحره على غير هدى ، فإذا ضل لم يتهم جهله ، إنما اتهم البحر وخلوه من الجزر والشواطىء ... وقد لا يضل ، ولكنه يجول جولة خاطفة ثم يعود سريعاً ليقول : إنه تنزه نزهة لا بأس بها ، ولكنه لم يصادف ما يسترعى الالتفات ... على أن هناك نوعاً من القراء أعجب من ذلك ... هو من يقرأ الكتاب ، لا ليستخرج منه رأى المؤلف ؛ بل ليطبق عليه رأيه هو وما يعتنقه هو من نظريات فى الفكر والأدب والفن فهو يطالع كتابك ليعرف هل أنت من رأيه ؟ ... فهو لا يريد أن يعرف عنك شيئاً ، ولكنه يطالبك

أنت بشيء : هو أن تكون قد كتبت كتابك طبقاً لما يريده هو من موضوعات لم يخطر ببالك أن تتناولها ... هذا القارىء هو عكس المكتشف ... فهو كالبحّار الذى يخرج إلى البحر لا ليكتشف ما فيه من جزر ؛ بل ليقول بعد جولته السريعة : كان يجب على البحر أن يبرز لنا على مقربة منّا جزيرة صالحة للزراعة ، فيها مناجم حديد وآبار بترول .

كل هذه الأنواع من الملاحين لا يمكن أن يكتشفوا شيئاً — لأنهم لا يعرفون ولا يريدون ولا يحاولون ... ولذلك يخرجون كلهم إلى البحار ويعودون منها ، ولا يقولون لك شيئاً نافعاً مثمراً عما شاهدوا ...

هذا عدا صنف آخر من القراء يزيفون أفكارك ، عندما يستعصى عليهم فهمها على حقيقتها ، أو يعبثون بها فتبدو شيئاً غثاً ضحلا ، هو ولا شك من صنعهم هم ... لا من صنعك أنت .

وخير من هؤلاء جميعاً القارىء المتواضع الذى يحاول

بكل أمانة وطيب إرادة وحسن طوية أن يتابع أفكارك بصبر وعناية ... وهذا يكفى ... سواء نجح أو أخفق فى فهم ما تريد ، ومثل هذا القارىء عادة لا يتحذلق ولا يتظاهر بعلم ولا يلقى الكلام على عواهنه ... إنما نعرفه جميعاً من اختيار ألفاظه واتزان أحكامه .

فجملة القول إذن أن القارىء المكتشف ليس بالقارىء العادى ؛ بل هو قارىء نادر ... لأنه وهب من صفات الصبر والدقة وطول البال والباع وحسن التلقى وقلة الادعاء وحب المؤلف — وأقول حب المؤلف لأنك لن تستطيع أن تتجشم جهداً فى اكتشاف شىء لا تحبه — هذا القارىء وهب من هذه الصفات كلها قدراً يؤهله لأن يكتشف : أى يعطيك أكثر مما يأخذ منك ...

فمن يكتشف جزيرة — ولو صغيرة — يعطيها من القيمة فى نظر الزمن والوجود والتاريخ أكثر مما يأخذ منها ...

هذا القارىء هو خالق المؤلف ...

نعم . . . إنه هو الذى خلق « أرسطو » و « أبا العلاء » و « الخيام » و « شيكسبير » .

هذا القارىء الخلاق الذى عندما يخطر له أن يقرأ يكتب ويدون اكتشافه فإنهم يسمونه « الناقد » ، أو على الأصح الناقد المفسر ... هو : « خرستوف كولمب » الفن أو الأدب ... لولاه ما استطاعت الأجيال أن تعرف من مخلوقات الفكر البشرى هذه المعالم والمسالك ...

القارىء المفسر هو أيضاً من هذا الطراز ...

ولقد كنت أنت ياقارئى المجهول دافعاً إلى البحث عن حقيقتى ، بما أتحته لى من هذه الإجابة التى أرجو أن يكون فيها بعض الجدوى .

إنك لم تذكر اسمك ... مامن أحد يعرفك ... ولكن قد يكون لك فضل فى تعريفى أنا إلى الناس ...

تحياتى إليك وشكراً ...

ت ١٠ ١٩٥٥

جوهر التعادلية

[لا ينبغى أن تؤخذ كلمة « التعادل » هنا بالمعنى اللغوى الذى يفيد «التساوى » ... ولا بالمعنى الذى يعنى «الاعتدال» أو التوسط فى الأمور .

بل إن معنى «التعادل» هنا هو «التقابل» . و «القوة المعادلة » هنا معناها « القوة المقابلة » والمناهضة .

فإذا لم يفهم معنى الكلمة على هذا الوضع ، فإن «التعادلية» تفقد حقيقة معناها ومرماها .

إن « التعادلية » فى هذا الكتاب هى الحركة المقابلة والمناهضة لحركة أخرى] .

الواحد الصحيح = صفر .

الحياة الإيجابية تبدأ من العدد « اثنين » . إذ بوجود شيئين توجد العلاقة بينهما : أى الحركة والحياة .

كل حركة يجب أن تقابلها وتعادلها (تناهضها) حركة .

كل قوة يجب أن تقابلها وتعادلها قوة .

الله وحده هو الواحد الأحد الكامل بذاته . ومع ذلك أوجد بإرادته تعالى قوة أخرى مقابلة : هى قوة الشيطان ، كى تبدأ الحياة البشرية فى التلون والتحرك .

وخلق الله آدم واحداً صحيحاً . فكان وجوده سلبياً .

فصنع منه اثنين ... ووجد آدم وحواء .

وعندئذ اتخذ الوجود حركته الإيجابية .

والشمس بمفردها قوة سلبية . ولكنها انقسمت إلى كواكب أخرى تتعادل وتتوازن فى حركة مناهضة لتقاوم وتبقى ... فبدأت فى الكون الحركة الإيجابية .

قوة السلطان المطلق حركة سلبية ... ولا بد من حركة مقابلة معادلة : هى قوة المحكوم ، لتبدأ فى المجتمع حياة إيجابية .

وهكذا ... وهكذا ...

تلك هى التعادلية فى جوهرها .

خلاصتها أن الواحد الصحيح وجود سلبي ...

هو خطوة بعد العدم ... هو من حيث الحركة الإيجابية صفر ... لأنه لا يقاوم غيره ولا يجد غيراً يقاومه ... وبانعدام المقاومة تقف الحركة ...

الحياة الحقيقية لا تبدأ إذن إلا من العدد « اثنين » ...

ولكى يظل العدد « اثنين » موجوداً دائماً ، يجب أن يحافظ كل واحد فيه على قوته الخاصة ... فإذا تضخم واحد على حساب واحد ، أو ابتلعت قوة أحدهما قوة الآخر ، رجع العدد ٢ إلى واحد صحيح : أى إلى الوجود السلبي ...

التعادلية إذن تفسر الحياة الإيجابية بأنها ضرورة وجود جملة قوى تتقابل وتتوازن مناهضة بعضها بعضاً فى الكون والمجتمع ...

وأن العدم يبدأ بابتلاع جميع القوى فى واحد صحيح ...

الواحد الصحيح هو السكون ...

والأعداد المختلفة المقابلة هى الحركة المعادلة المناهضة ...

هى الحياة ... تلك هى التعادلية ...

هى فلسفة الحركة المقابلة المعادلة : أى الحياة ...

احتفظ بقوتك الخاصة مستقلة حرة ، لتعادل بها وتقابل القوى الأخرى التى تريد أن تبتلعك ... بذلك تقاوم وتتحرك وتحيا ! ...

التعادلية هى مقاومة الابتلاع ...

إذا كان لديك ضعف ونقص ، فابحث جيداً فى أنحاء نفسك ، فستجد فيها قوة خفية معـــادلة وزيادة كامنة مقابلة ...

عادل وجودك كما فعلت أرضك إزاء الشمس ! ...
وازن نفسك تجاه القوى المواجهة ! ... وإلا ابتلعتك
فى جوفها ، وأصبحت لها وقوداً وطعاماً ... وصرت
عدما ! ...

هكذا تقول التعادلية ! ...

كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها ... ففى المجال
السياسى والاجتماعى مثلا الرأسمالية أرادت ابتلاع العمل ...
الاستعمار يريد ابتلاع الشعوب ... الطبقة القوية تريد
ابتلاع الأمة كلها ... الغرب يريد ابتلاع الشرق ... إلخ ...

التعادلية هى فلسفة القوة المقابلة والحركة المقاومة
للإبتلاعية ...

SS

الإسلام والتعادلية (*)

(*) هذه الفصول عن « الإسلام » ، التى تنشر هنا للمرة الأولى ، لم تشملها كلية الدكتور زكى نجيب محمود التى كتبها ونشرها فى مجلة الهلال فى أول فبراير عام ١٩٦٨ .

SS

وأخيراً . . . فما دمنا قد حاولنا أن نجيب عن السؤال الذى نطرحه دائماً على أنفسنا وهو عدم وجود فلسفة لنا الآن ، وأن تفكيرنا وفلسفتنا هى ما نستجلبه جاهزاً من الفلسفات الأوربية ، فإن هذه المحاولة قد انتهت بى إلى ما كنت أشرت إليه فى عام ١٩٣٧ فى كتابى « عصفور من الشرق » من أن حياتنا العقلية تعيش فى عالمين .

وفى عام ١٩٥٥ كتبت « التعادلية » لأوضح أن كل شىء فى الكون يقوم على « التعادلية » .

ثم وصلت إلى ١٩٨٢ ، فوجدت أن دينى ، وهو الإسلام ، وهو جزء من النظام الكونى ، قائم على التعادلية ، ولذلك أضفت هذا القسم الأخير الخاص بالاسلام من وجهة النظر التعادلية ، ورأيت أن ما يمكن جعله أساساً لفلسفة عربية إسلامية هو ما نشأ من عقيدتنا التى تقول للإنسان إن

عليه أن يعيش فى عالمين : أى أن « يعيش فى الدنيا كأنه يعيش أبداً ، ويعيش للآخرة كأنه يموت غداً » .

وهذا يقتضى من هذه الفلسفة أن تدرس الحياة الدنيا جيداً ، وتحاول أن تعرف ماتستطيع معرفته عن الحياة الآخرة . ولكننا مع الأسف لم نحاول دراسة الحياة الدنيا لتعايش الحياة الأخرى فى تعـــادل مُنتج ، فخشينا مواجهة قضايا العصر ، فتخلفنا عنه ...

* * *

ونحن اليوم بصـدد تقنين الفقه الإسلامى وجعل الشريعة الاســـلامية أساساً للتشريع ، فمن الواجب أن نعرف منشأ هذه الشريعة فى المجتمع الذى ظهرت فيه أول مرة ، والمسار الذى سلكته هذه الأحكام الشرعية من مبدأ العمل بها إلى ما انتهت إليه اليوم ، وهل زالت هذه الأحكام كلها تماماً فى مجتمعنا الحاضر أم بقى منها شىء ... ففى القانون المدنى الذى نطبقه اليوم ماذا يتفق مع الشريعة فيه ؟ وماذا

يختلف؟ وفى القانون الجنائى، ماذا أخذ ؟ وماذا أهمل ؟ كل ذلك لابد فيه من إحصاء دقيق واضح تحت نظرنا حتى يجرى الكلام فيه على أساس العلم اليقينى بالأمانة العلمية التى كان يعرفها ويمارسها السلف الصالح فى عصور الإسلام الزاهرة .

وواجب رجال الدين تعريف الناس بالساع أفق ورحابة صدر نبى الاسلام صلوات الله عليه عندما أخذ بما كان جارياً عليه العمل قبل الاسلام دون أن يتحرج ، مثل أخذه بعقوبة قطع يد السارق التى كان معمولاً بها فى الجاهلية وجاء القرآن فأقرّها ، وكذلك عقوبة الرجم فى الزنا التى كانت فى التوراة ، وهذا يدل على أنه لا يوجد فى الاسلام موانع ترفض الأخذ بما لم يكن قد نشأ فى الاسلام وحده ، وهو ماقاله ﷺ « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

فلا حرج إذن من أن يقتبس الاسلام ما ينفع المسلمين ، ولكن رجال الدين فى عصرنا الحاضر أصبحوا لايجرؤون على ما كان يفعله النبى نفسه ، والذى لم يحرّم ما ينفع المسلمين

لمجرد أنه لم يأت به الاسلام ، بل لا يتمسك بما يأتى به هو نفسه إذا كان فيه ضرر ، كما حدث فى مشورته لأصحابه فى قصة النخيل ، فلما رأى رأى الناس أتى بالنفع قال لهم : « أنتم أدرى بشئون دنياكم » . هذا ما ينبغى دائماً لرجال الدين اليوم الاقتداء به فيما ينفع الناس بصرف النظر عما إذا كان هذا مطابقاً أو غير مطابق لما كان يجرى عليه العمل فى العصور السابقة . أى أن يكون الأساس فى ممارسة الحياة على النفع الذى يعود على الناس وليس على النصوص القديمة وحدها .

ولهذا عندما نقول إن الفلسفة الاسلامية عندنا تستقر فى بنيان أقامه المفكرون من المسلمين ، لأن كل فلسفة لا يمكن أن تقام إلا ككل بنيان : حجر فوق حجر ، ومجهودات فوق مجهودات ... فإن هذا البناء لهذه الفلسفة الإسلامية لا بد أن يقوم على أساس الحياة فى عالمين : الدنيا والآخرة . ويجب أن تكون قضايا الدنيا قد تعمق فى دراستها رجال دين ودنيا ، أى رجال متبحرون فى علوم الدنيا إلى جانب

تفقههم فى علوم الآخرة ، وفلاســـفة متعمقون فى شئون الآخرة ... وبالتعادل بين الحياتين تنشأ الفلسفة الاسلامية والعربية . . .

كل ذلك بالروح الذى تميز به الإسلام : وهو الاعتدال بعدم الغلو والتطرف والاسراف ؟

التعادلية في الإسلام

التعادلية والطغيان

فالتعادلية تقوم على عدم طغيان موجود على موجود .
سواء في الأرض بين الأجسام ، أو في السماء بين الأجرام .

تعادلية الإسلام

والإسلام يقوم على الإيمان بوجود الدنيا ووجود الآخرة ، ولكل وجود شأنه المستقل ، فالدنيا وجود يعمل فيه الإنسان « كأنه يعيش أبداً » ، والآخرة وجود يعمل له الإنسان « كأنه يموت غداً » ، ولا طغيان لأحدهما على الآخر إلى حد الإفناء والإلغاء .

الخير والشر

وقد خلق الله تعالى الخير ليعيش مع الشر على أرض هذه الدنيا ، والنور مع الظلام ، لا طغيان لأحدهما على الآخر . فالوجود الكونى كما خلقه الله تعالى جعل له خالقه هذا القانون الثابت : لا وجود يطغى على وجود . لأن الله لا يلغى ما خلقـــه ، ولكنه يعدّله ويصلحه ويضيف إليه . حتى الموت ليس فى حقيقته إلغاء لوجود ، ولكنه انتقال لموجود من وجود إلى وجود .

ممارسة التعادلية

ولكن ممادسة التعادلية فى الحياة تستلزم وجود المتناقضات ، فالحياة مكونة من عناصر ، ومن العناصر مايحاول بعضها إفناء البعض ، سواء فى الفرد بتعارك قواه

وصراع جراثيمه ، أو فى المجتمع بتدافع تجمعاته « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »[1] وهذا التدافع والتناقض لا ينبغى أن يؤدى كما قدّر له الله إلى الطغيان الذى يتم به الفناء التام . . بل هيأ له الضد الذى يحفظ له الوجود ولو فى صورة جديدة .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥١

العقل والإيمان

ومن أهم العناصر المتصارعة : العقل والإيمان .

العقـــل :

جاء فيما ورد عن الله تعالى فى حديث قدسى مخاطباً العقل :

« ... ماخلقت خلقاً أعجب إلىّ منك ، وعزتى وجلالى لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت » . كما قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء ... »[1] . والخشية كما فسرها بعض المفسرين ترمز إلى التقدير والإجلال .

وقال ﷺ عن الفكر والتفكير : « لا عبادة كتفكير » ثم : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

الإيمـان :

وإلى جانب تمجيد العقل والفكر فى الإسلام وجد معه

---

[1] سورة فاطر ، آية ٢٨ .

الإيمان : كما وجدت الدنيا وإلى جانبها الآخرة . ويقع بينهما أحياناً مواقف متعارضة ، تستوجب الفصل بينهما بالقول إن الإيمان يُستخدم فيما يتصل بالله ، والعقل يستخدم فيما يتصل بالبشر . ومن أقوال الرسول ﷺ إنه مر على قوم يتفكرون فى الله ، فقال : « تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق ، إنكم لا تقدرون قدره » ... ولا يخطىء العقل إلا إذا وصل إلى الطغيان وظن أنه يعرف قدر الله بعقله وحسب أن فى إمكانه أن يسبر غور المحيط بأصبعه . وقد لجأ عمر بن الخطاب إلى الإيمان ليمنع طغيان العقل عندما علم بالإسراء : لم يقبل عقله ما حدث .. وكاد أن ينضم إلى الذين كذّبوا وشنعوا ، وارتد أقوام كانوا قد آمنوا . وعلم أبو بكر الصديق بما كان من عمر ، فتصدى له مؤكداً أن الإسراء حدث فعلا ، وقد علم به من النبى نفسه .. ووقع عمر لحظة بين ما يرفضه العقل ، وهو من أعظم الناس تقديراً للعقل ، وبين ما يقبله الإيمان .. فانتهى إلى الإيمان .. لأن

العقل محدود بحدود القدرة البشرية . . أما الإيمان فهو متصل بالقدرة الإلهية غير المحدودة .

فالإسلام إذن تعادلية : لا يطغى فيه العقل فيحجب نور الإيمان ، ولا يطغى الإيمان فيشل حركة العقل . والعقل سلم يصعد عليه بالمنطق البشرى ، والإيمان شعاع يضيء بغير دليل أرضى .

الدين والدنيا

جمع الإسلام بين الدين والدنيا ، أى بين شئون الروح ودواعى الجسد ، أى أن الاتصال بالله والصلاة والصيام والاعتكاف ونحو ذلك من شئون الروح ، لا ينفى الاتصال بالمرأة والمأكل والمشرب ونحو ذلك من ضرورات الجسد . وهذا الجمع هو ما يميز طبيعة الإنسان الذى يتغذى روحياً بغذاء نورانى ، وجسدياً بغذاء مادى ، ولهذا كانت فطرة الإنسان هى جوهر الإسلام فى توازنه وتعادليته .

فاليهودية طغت فيها المادية إلى حد أن كان الهيكل المقدس فى عهودها الأخيرة مكان تجارة ، فكان لا بد من رد فعل قوى تمثل فى الروحية المسيحية ، ولهذا بعث الله من لدنه الروح القدس ؛ أى المولود بغير أب من البشر ، ولكن احتمال الروح العلوى لم يكن ممكنا للبشر إلا فى حدود المثل العليا ، فكان أن أرسل الله تعالى الرسول من البشر ليقيم التوازن بين الروحية والمادية ، تبعاً للطاقة البشرية وطبقاً لطبيعة الخلق البشرى من روح ومادة .

وفى هذا التوازن أى « تعادلية البشرية » ختام التكوين فى الإنسان ...

الاعتدال وعدم الإسراف

قال تعالى : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[1] .

(١) سورة الأعراف ، آية ٣١

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ... »[1] فقد اتفق جماعة من المتطرفين على أن لا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ولا الطيب ، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ، فقال رسول الله : « ما بال قوم قالوا كذا وكذا ! لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقال رسول الله ﷺ : « حبب إلىّ من دنياى ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . ومعنى ذلك عندى : هو ما يرمز لخير مافى الدنيا : النساء رمز المادة ، والطيب رمز الجمال فى الرائحة والفن ، والصلاة رمز الروح والقرب من الله . وكل ذلك فى اعتدال وبعد عن الغلو والإسراف .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٥

عدم الغلو فى الدين

حتى فى الدين قال الله تعالى فى سورة المائدة : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق »[1] .

كما جاء فى الأحاديث الشريفة عن الإسلام :

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ... » أى إن الله تعالى يأمر فى الإسلام بعدم الغلو والإسراف . أى بالاعتدال والتعادل هذا هو الأساس الذى تقوم عليه التعادلية ، لأن عدم الاعتدال معناه طغيان موجود على موجود ، والله يحافظ على وجود كل ما أوجده .

ومن صور هذا الغلو أن سارع بعض رجال الدين إلى تحريم شهادات الاستثمار وهى أشبه بما كان يحدث أيام السيدة خديجة رضى الله عنها ، عندما كانت تكلف النبى فى شبابه باستثمار مالها فى التجارة ، واليوم تقوم بمثل هذه المهمة

(١) سورة المائدة آية ٧٧ .

المصارف بأسلوب يختلف بعض الشيء عن العرف الاستثماري في زمن الرسول ... وهذه قضية كان من الواجب اليوم بحثها موضوعياً وبروح بعيدة عن التطرف والغلو .

قيل إن الرأي المتطرف خشي أن يكون هذا الاستثمار مثل الربا ... وقال الرأي الآخر إن المقارنة بعيدة ، لأن الربا ليس فيه تجارة ، وإنما فيه رجل فقير واقع في نكبة، فأراد أن يخرج من هذه النكبة بمال يقترضه من رجل غني ، فاشترط صاحب المال على المدين المحتاج أن يردّ القرض ويزيد عليه مبلغاً آخر . فالربا هو استغلال غني قوي لنكبة فقير ضعيف ، وهذا عكس الاستثمار الخالي من الضعيف والقوي ، بل إن الضعيف هنا هو صاحب المال الذي يريد تنمية ماله بالتجارة ، والتراضي ، وليس فيه ضغط ولا نكبة ولا إنقاذ... أما احتمال الخسارة ، فهو شأن كل تجارة : فيها المكسب وفيها الخسارة . أما الحل المقترح بإلغاء كلمة

« الفائدة » ووضع كلمة « المضاربة » محلها ، فهو من قبيل « التحايل » غير اللائق فى دين كالإسلام قائم على الصدق والصراحة ... ولا خطر على الإسلام ومستقبله إلا من فقيه ماجن يشيع فى المسلمين الخوف من الحرام والحلال فيقعد المسلم عن التحرك النافع . من ذلك أن غنياً كبيراً أودع أمواله الطائلة فى مصرف أجنبي فاستغلها المصرف فى التجارة فربحت الأرباح الكثيرة ، فأراد أن يعطى صاحب المال نصيبه فى الربح فرفض قبضها لأنه لا يأخذ الفوائد . فحار المصرف ولم يعرف كيف يتصرف فى مال ليس من حقه حجزه ، وسأل المصرف عن هذا الأمر العجيب فقيل له إن هذا الرجل مسلم ، والإسلام يرفض الفائدة . فتعجبوا فى المصرف ، وقال بعضهم : إذا كان يرفض ربح أمواله من التجارة فلماذا لا يقبضها ثم ينفقها فى مشروعات تعود بالخير على مواطنيه المحتاجين ! ؟ ولكن هذا الغنى المسلم لم يفهم إلا أن هذا حرام كما أفتى له المفتى ...

الرأي الآخر

وفى الآراء جاء فى الإسلام أن الله تعالى وهو العزيز الجبار استمع إلى قول من خالفه وإن لم يأخـــذ به : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ؛ قالوا أتجعل فيهـا من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟! قال إنى أعلم ما لاتعلمون »[1].

كذلك علمنا الإسلام أن تكون المجادلة بما هو أحسن ، وعند عدم التلاقى فى الرأى يكون « لكم دينكم ولى دين » وفى هذا أيضاً ضمان لعدم طغيان رأى إلى حد إبادة رأى آخر .

(١) سورة البقرة آية ٣٠

الحق والباطل

وكما خلق الله النور والظلام ، خلق الحق والباطل والصواب والخطأ ، وجعل أداة التمييز بينهما هى مسئولية العقل ؛ فإذا عجز العقل عن الرؤية والتمييز جعل نور الإيمان هو العين المبصرة ، ولكن دون الطغيان المبيد . فقد قدّر الخالق بحكمته أن يظل الموجود الذى خلقه موجوداً . فسوف يظل الظلام موجوداً ما وجد النور ، ويبقى الباطل والخطأ ما بقى الحق والصواب .

النصر والهزيمة

وكما قدر الله النصر فى بدر ، قدر الهزيمة فى أحد ، ليتمشى كل شىء طبقاً لحركة الحياة ، وتبعاً لقانون الوجود ، ولحكمة أخرى هى فى علمه ، والله أعلم .

دين البشر

وعندما أراد الله أن يكون الإسلام ديناً للبشر بما فى البشر من صفات متناقضة ونزعات مختلفة منها القوة والضعف والصحة والمرض ، واللذة والألم ، والانشراح والضيق ، والسعادة والشقاء ، بعث رسولاً من البشر تمر به هذه المواقف ويعرف هذه المشاعر ؛ فعرف مشاعر الزوج السعيد بإخلاص خديجة ، وآلام الزوج الشاك بما شاع من حديث الإفك حول عائشة ، كما عرف المرارة من طباع الناس من عدو وصديق إزاء هذه الشائعات . ثم متعة الإيمان وانتصاره بدعوته . وعرف الرسول حب الله له ، كما تلقى عتابه له يوم « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

وبالاختصار فقد لخص بوجوده كل الوجود البشرى من كل جوانبه وكل مواقفه ، مصداقاً لقول الله له : « قل إنما أنا بشر مثلكم ... »[1] .

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

التعادل والعدل والاعتدال

ويروى عن الإسلام : « بالعدل قامت السماوات والأرض » تنبيهاً إلى أنه لو كان ركن من أركان العالم زائداً على الآخر أو ناقصاً عنه لم يكن العالم فى هـــذا الانتظام .

والعـدل والاعتدال والتعـادل هى العناصر الثلاثة « للتعادلية » وضد هذه العناصر الطغيان والظلم والإسراف ، وقد ذكرت فى القرآن كلمة « الإسراف » كثيراً ، والأمر دائماً بالقول « لا تسرفوا » ، لأن الإسراف إخلال بنظام الكون ...

الجمـال

قال الله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم»[1] أى فى الاعتدال، وهو مايمكن أن نصفه بالتناسق والانسجام وهو الجمال : فالصوت الجميل فى التلاوة كان النبى الكريم يحبه ، وكذلك الرائحة الجميلة فى الطيب ، واللغة الجميلة فى القرآن ، وفى بعض الشعر الرفيع . ولا يمكن أن يكون الفن الجميل مكروهاً إلا عندما ينحط إلى التعبير عن أحط وأخس وأقبح ما فى الإنسان . وفى المرأة قال صلى الله عليه وسلم : « خير النساء المرأة إذا نظرت إليها سرتك ... » . وروى أبو هريرة عن رسول الله أنه قال : « من كان له شعر فليكرمه » أى يجعله حسن المنظر . فالإسلام لا يحب أن يطغى القبح فيفسد حسنَ التقويم ، ولا أن يطغى الجمال فيؤدى إلى

---

(١) سورة التين آية ٤ .

التخنث ... فالإسراف ، أى الطغيان فى الإسلام يفسد انتظام الكون ...

طغيان الخمر

نزل التحريم النهائى للخمر عندما صدر عن حمزة للنبى عليه الصلاة والسلام من القول الجافى المخالف لما يجب من احترام النبى وتوقيره ما يدل على أن حمزة قد ذهب عقله بالخمر ، فعرف رسول الله أنه ثمل ، أى أن طغيان الخمر قد حجب العقل ، فاختل بذلك الاعتدال فى إدراك الإنسان ، وفقد تعادله واتزانه .

طغيان العقل

منذ القرن التاسع عشر والعقل يوالى انتصاراته بالعلم الذى نشأ عنه وأبدع مخترعاته واكتشافاته التى أذهلت الناس ، وجعلت قدرته تكاد تحجب قدرة الله ، حتى أطلق الفيلسوف « نيتشـــه » صيحته المشهورة : « إن الله قد مات » ... وجاء القرن العشرون والعقل فى أوج تألقه والعلم قد أخرج الإنسان من جاذبية الأرض ، فقال عالم الفيزياء الذى قطع فى أبحاثه عن المـادة شوطاً أبعد مما وصل إليه « أينشتين » وهو العلامة « ألفريد كاستلر » مؤلف « المـادة هذا المجهول » صرح بقوله : « إننا كلما أوغلنا فى دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئاً ... فهناك دائماً ، وسوف يكون إلى الأبد ، ما هو مخفى عنا » .

ولمـا سئل : مخفى بمن ؟ قال : بالله .

« الله » والعلم

لفظ « الله » على لسان عالم فى الفيزياء محرج له ... لأنه يخشى هو وعلمه أن يُسأل بعد ذلك «من هو الله»؟: وان يستطيع أى علم أو عقل بشرى على كوكبنا أو أى كوكب آخر مهما يبعد أن يصف « الله » . ولعل خير إجابة هى ما وردت فى القرآن : « ليس كمثله شىء » . وعجزنا مثل عجز الكبد مثلاً فى داخل جسمنا ، وعجزه إلى الأبد ، عن إدراك وصف أى شىء خارج جدران هـــذا الجسم البشرى . فخارج جدران الكون لا يمكن لمخلوق داخله أن يرى خالقه . . فالله خارج حدود العقل البشرى .

المجهـــول

النور الإلهى وحده هو الذى قد يصلنا بهذا المجهول . ولذلك فإن من اعتمد على العقل وحده فى الاتصال بالله لن يراه . لأننا لا نرى الكوكب البعيد إلا من نوره ، وليس بمعادلات العقل ولا تلسكوباته، فأقواها لا يرينا غير السطح الأجرد . أما النور الإلهى فهو الذى قد يرينا شيئاً آخر يوحى إلينا بوجود لا يعرفه غير القلب .

وللوصول إلى المعرفة الكاملة لا ينبغى أن يطغى العقل على القلب فلا ينتفع بنوره ، ولا أن يطغى القلب على العقل فيخسر تفكيره المنتج . والإسلام مارس هذه التعادلية .

الرحمن

من القوى المدمرة للإنسان الغضب .. وطغيان الغضب يمكن أن يؤدى إلى اختلال التوازن العقلى والعاطفى للفرد والمجتمع ، وهدم تعادلية الوجود .. وعلاج الطغيان للغضب فى الرحمة .. ولذلك جعل الله الرحمة من أبرز صفاته .. فبدأ آياته باسم الله الرحمن الرحيم ليذكر الإنسان دائماً بالرحمة إذا اقترب منه الغضب وأنذر بالطغيان . فالإنسان مخلوق ضعيف، ولا يقوى دائماً على الصمود فى مواجهة غريزة عنيفة كالغضب والظلم والعدوان ، إلا أن يتسلح بفضيلة الرحمة والعدل .

وقد ورد فى الحديث القدسى : « إن رحمتى سبقت غضبى » .

العسر واليسر

جاء فيما ورد عن النبي الكريم أنه كان يصلى أحياناً فيأتى حفدته الصغار فيمتطون ظهره وهو راكع . فيطيل هو فى ركوعه لتطول متعة أولئك الصغار الأبرياء ؛ ولم يقل أحد كيف يفعل النبي ذلك ، وهو فى صلاته فى حضرة الله تعالى ؟ أليس فى ذلك ما يمس واجب التبجيل والتوقير للخالق ! وهم لا يعلمون أن الله فى علاه وعظمته ليس فى حاجة إلى تبجيل وتقدير إذا كان فيما حدث متعة بريئة لأطفال أبرياء ... وكذلك ما أورده الترمذى من أن عمرو بن العاص دخل ذات يوم المسجد وصلى وهو جنب ، فذهب بعض الناس إلى النبي الكريم وأخبروه بذلك ، فسأله النبي ، فقال عمرو لرسول الله : إن اليوم كان شديد البرد وما كان يحتمل الاغتسال فى ذلك البرد . فابتسم النبي وتركه وانصرف .

وفى الإسلام « الضرورات تبيح المحظورات » . و « إنما

الأعمال بالنيات » . فإذا انتفت نية السوء والكسل والتهاون في الدين ، فإن الدين يتسامح ، لأنه « يسر لا عسر » . وفي الإسلام تعادلية : فلا طغيان للعسر على اليسر .

حتى في الشعائر

فالغلو والإسراف في شعائر الدين ليس مما يحبذه الإسلام . فشعائره الموصى باتباعها قد روعى فيها الاعتدال . والتعادلية في الدنيا والدين هي اعتدال وعدل وتعادل . فلا إسراف ولا طغيان .

إن الإنسان ليطغى

قال تعالى : « إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى »[1] واستغناء الإنسان يحدث عندما ينال القوة فى صورة مال وصحة وعلم . وتاريخ الانسان يدل على أنه كلما ظفر بالقوة ، ولو فى عنصر من عناصرها ، ضعف اهتمامه بالدين والخالق . فالإنسان البدائى فى ضعفه وعجزه عن مواجهة قوى الطبيعة ، وخوفه على نفسه من هذه القوى ، وعدم فهمه لها ، أخذ يبحث عن قوة أخرى تحميه ؛ فظهر الكاهن الذى أفهمه أن القوة التى تهدده وتحميه من الخوف وتمنحه ما يريده هى قوة الأرواح الشريرة والخيّرة ، وبدأ الدين الأوّلى بكهنته وقرابينه ، إلى أن استولى على قياد الناس

---

(١) سورة اقرأ آية : ٦ ، ٧ .

وطغى ، فثار عليه الناس ، ثم ارتقى مفهوم الإنسان فاكتشف القوة الحقيقية فى الله ورسله وكتبه السماوية . إلى أن بلغ من رقى فهمه وعقله أن اكتشف قوة أخرى غير سماوية هى : العلم . وكان الذى كشف له عنها هو العقل الذى خلقه الله وقال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم * كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى » .

واستغنى الإنسان بالعلم عن الله عند ما رأى من العلم معجزاته ، فقال نيتشه : « إن الله قد مات » . ونسيت كلمة الله فى قرآنه :

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) .

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

العـــلم القليل

ولـكن طغيان العلم لم يستمر طويلا . فقد قالت المعرفة الروحية فى مواجهة العلم المـادى : « القليل من العلم يورث الإلحاد ، والـكثير منه يورث الإيمان » وقد أخذ العلم يرقى ويتبحر إلى أن جاء عالم معاصر وقال : إنه كلما توغلنا فى علمنا البشرى سوف يظل شىء محجوباً عنا . فلما سئل عما يحجبه عنا ، قال : « الله » ...

« العمـــل عبادة »

وقد وضع الإسلام عبادة الله فى المنزلة العليا . ومع ذلك لم يجعل هذه المنزلة تطغى على منزلة العمـــل ، فقد مر يوما رسول الله (وقيل عمر) برجل ناسك انقطع لعبادة الله لا يعمل شيئاً غير العبادة ، فسأله عمن يطعمه ، فأجاب أن أخاه هو الذى يعمل ويطعمه ، أما هو فليس له عمل . فقال له : أخوك الذى يعمل ويطعمك ! ... أخوك أعبد منك ...

الإتقان

كذلك قال النبى ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . فى الحضارة الإسـلامية كل شىء فى الوجود يؤدى عمله بإتقان إنما يحقق الغاية من وجوده .

الحرب والسلام

فى الإسلام لم تكن الحرب للعدوان ، بل كانت جهاداً فى سبيل الله ، أى فى سبيل السمو الروحى والغاية العليا . أما السلام فكان لغاية مثمرة ، بغلق باب عداء عقيم ، حتى لو تكلف ثمناً . فقد جاء فى صلح الحديبية أن النبى ﷺ أملى كتاب الصلح على علىّ بن أبى طالب قائلا : « أكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » ، فقال مشركو قريش : لو كنا نعتقد أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » فقال الرسول للكاتب « أكتب ما يريدون » . وتم الاتفاق على أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدا لم يردّوه

إلى المسلمين . فعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله أن الله سيجعل له فرَجاً ومخرجا . ونزل القرآن بالفتح . . . فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، أوَ فتح هو ؟ قال : « نعم » . . فطابت نفسه .

التجـارة والصناعة

وصدقت فطنة الرسول بأن الصلح فتح لأبواب مثمرة. فنمت فى الإسلام التجارة والصناعة .

كما ورد فى القرآن والأحاديث ما يدعو إلى اتخاذ الصنائع والأسباب . ففى الحديث الشريف عن صاحب الحرفة : « إن الله يحب المؤمن المحترف ... ويبغض السائل الملحف ... » ومن الأنبياء من كان يأكل من عمل يده كداود عليه السلام .

الحضـــارة

والحضارة الإسلامية متحركة وليست جامدة ، وهى تشجع لذلك الأخذ بكل جديد مفيد . فلا تدع الجديد المفيد يفوتها بينما هى قاعدة فى زمن قديم . ولا تأخذ بغريب غير مفيد لهـا فتفسد شخصيتها ويختل كيانها . فلا طغيان ، بل إضافة وتـكامل . وخير مثال للإضافة المفيدة ما ورد فى القرآن من ألفاظ هى فى الأصل أعجمية ، لـكن استعملتها العرب وعرّبتهـا ، فهى عربية بهذا الوجه . هذا إلى ماورد فى الحديث الشريف : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، وما حدث فى عصور النهضة الإســـلامية من حركات الترجمة والاطلاع الواسـع فى علوم العصر ومعارفه ، ممـا جعل الاسـلام يسهم فى الانتقال بشعوب أخرى ،

ومنها شعوب أوروبا فى القرون الوسطى ، من الظلام إلى النور .

كانت الحضارة الاسلامية تدخل من أسباب الدفاع ما يلزمها ، فأدخلت « الخندق » الفارسى و « اللأمة » الرومية ونحو ذلك . فجاء كل هذا مصداقاً للقول « إن الاسلام صالح لكل زمان ومكان » . لأنه يستطيع أن يتحرك دائماً فى الزمان والمكان ، ولا زال حتى اليوم يتحرك إلى الأمام فى الزمان والمكان إذا لم يقف فى وجه حركته بعض الجهلة الجامدين أو بعض الناقلين المقلدين . من ذلك ما شاع عندنا اليوم ممن يتلقى على يد المستشرقين الأجانب العلوم الإسلامية وما يتصل بها وينالون درجة الدكتوراه ثم يحرصون على أن يسبق أسماءهم هذا اللقب فيقال عنهم : الدكتور الشيخ فلان ... فى حين أن رجال الدين المسيحى ممن تعمقوا فى الدراسات المسيحية وهم كرادلة فى الفاتيكان

لا يضعون لقب « دكتور » إلى جانب اللقب الدينى ، ونحن الذين كان لدينا اللقب العلمى المعادل للدكتوراه وهى شهادة « العالمية » من الأزهر الشريف تركناها للشرف بما ليس ثابتاً فى أرضنا . وفى تراثنا البعيد ، وعندما كان لدينا خيرة الأئمة والشراح من علماء الدين العظام كنا نسميهم « الفقهاء » لأن التفقه فى علوم الدين والفقه هو الذى أبقى للتفكير الاسلامى حياته ... ولقد كتبت مرة أقترح أن يكون اللقب العلمى الأسمى لرجل الدين عندنا هو : « الفقيه » بدلاً من الدكتور ليتذكر دائماً تاريخنا المجيد وعمرنا المديد فى الفكر الاسلامى ...

التكافل الاجتماعى

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . . والوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها : مسلماً كان أو كافراً . وهو الصحيح . ويكمل ذلك شرط الزكاة فى الإسلام . ولو نظمت الزكاة تنظيما يتفق مع عصر العلم والآلات الحاسبة ونحو ذلك لاستغنى المجتمع ، ليس الإسلامى وحده ، بل العالمى أيضاً ، عن النظم الشيوعية . مع الاحتفاظ بالحرية فى العقائد ، وعدم الطغيان فيها .

حرية الرأى

فى موقعة بدر اختار النبى محمد مكاناً للمعركة وقال لجيشه : « ننزل ها هنا » ، فقال له أحد أصحابه : « يا رسول الله ، أرأيت هذا المكان ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » ، فأجاب محمد بكل صراحة : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ، فقال له مخالفه فى الرأى : « يا رسول الله : إن هذا ليس بمنزل ، فَسِرْ بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، فإنى عالم بها وَبقُلُبِها : بها قليب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح ، فنغور ما سواه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون » .

فقال له النبى : لقد أشرتَ بالرأى » .

الصدق

عندما مات إبراهيم ابن النبي من مارية القبطية ، وهى تبكى والناس يحملون جثته ، وحفار يحفر قبراً ، نظر النساء إلى السماء صائحات : « انظروا ... انظروا ، انكسفت الشمس» وصاح الناس : « إى والله ! . لقد انكسفت الشمس لموت إبراهيم » وكانت مناسبة وفرصة لاعتبارها معجزة ، ولكن رسول الله نهض وصاح فى الناس : « أيها الناس .... إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد ... » .. وبكى النبي وهو يقول : «لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي» . فقال له أحد الحاضرين : يا رسول الله . . . تبكى وأنت رسول الله ؟ ! فقال رسول الله : « إنما أنا بشر ... تدمع العين ، ويخشع

القلب ، ولا نقول إن شاء الله إلا مايرضى الرب ، والله لولا أنه أجل معدود ، ووعد صادق ، ووقت معلوم ، وأنه آخرنا لاحق بأولنا ، لجزعنا عليه جزعاً غير هذا ... إنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ! .. »

موت النبي

عندما مات رسول الله صلوات الله عليه دخل أبو بكر مسرعاً واتجه إلى الجثمان ورفع عنه الغطاء وقبله وبكى وقال : « بأبي أنت وأمي ... طبتَ حياً وميتاً ... أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » .

بينما عمر بن الخطاب يصيح من الخارج : « أيها الناس ... والله ما مات رسول الله ، إنما عرّج بروحه كما عرج بروح موسى ... »

وقال العباس عندما لم يصدّق الناس موته : « لقد ذاق رسول الله الموت ، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً : أحل الحلال ، وحرّم الحرام ، ونكح وطلّق ، وحارب وسالم ، وما كان راعي غنم يقبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم ... »

وجعل أبو بكر يصيح فى الجموع الهائجة الحزينة :

أيها الناس ! « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » [1] أما بعد : فمن كان منكم يعبد « محمداً » فإن « محمداً » قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . . .

هذا التفكير فى الإسلام هو الذى استلفت نظر أوروبا إلى الإسلام ، وسوف يستمر هذا النظر والعجب باستمرار التعمق فى التفكير . ولقد صادفت أخيراً كتاباً منشوراً عن مخطوط عربى لكاتب عاش منذ ألف عام يحتوى على موضوع يشابه ما جاء فى كتاب « الأمير » لمكيافيلى من الآراء السياسية ، وذكر فى مقدمته أن هذا المؤلف العربى سبق ميكافيلى بألف عام .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤

ولسوف يزداد التقدير للفكر العربى والاسلامى كلما اطلع العالم فى الغرب على ما يجهلون من المخطوطات العربية والاسلامية ... إلا إذا شاء سوء الطالع، للإسلام فى صورته العظيمة باليسر والتسامح والرحمة ، أن تطغى صورة أخرى منفرة بالعسر والعنف والغلو تذكّر بما حدث للمسيحية أيام محاكم التفتيش التى نفرت الناس من الدين ورجاله ...

اللهم احفظ الإسلام وشعاره الذى جاء به نبيه : « إنما بعثت رحمة للعالمين » .

ختام

إن أهمية التعادلية اليوم هى فى كونها لازمة أكثر من أى زمن مضى ، وخاصة فى بلاد الاسلام ، لأن التعادلية فى جوهرها نابعة من جوهر الاسلام، والخروج على الاسلام فى جوهره يتبعه بالضرورة خروج على جوهر التعادلية وعناصرها : العدل والتعادل والاعتدال .

والبلاد الاسلامية تستلفت أنظار العالم الآن بالتطرف والإسراف فى الخصومات بين المسلمين ، والحروب التى تستخدم فيها أعنف أدوات الدمار ، حتى أصبحت كلمة المسلم لا توحى بالاحترام . بل إن الاسلام الحقيق ليس معروفاً فى بلاده نفسها ، إنما المعروف والمطبق طقوس وشعائر . وهذا طبيعى فى كل الأديان ، لأن البشر

فى كل مكان وزمان ، لا يطيقون الجد طول الوقت ، وحتى الجد يحاولون أن يخرجوه من أعماق الجوهر إلى سطح المظاهر .

والإسلام دين التسامح القائل أنه «لا إكراه فى الدين» ، والمعترف ببشرية الإنسان وما يصادفها من ضعف ، ولكنه يدعو دائماً إلى عدم طغيان هذا الضعف .

ومحاربة الطغيان وإقامة الميزان فى أعماق كل إنسان ، هو دعوة الإسلام فى القرآن الكريم . فقد قال الله تعالى فى سورة الرحمن : « والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألاّ تطغوا فى الميزان»[1]. للميزان إذن مكان فى الإسلام . ولصدق الإسلام نجد فى المعتقدات الأولى منذ مبدإ التاريخ البشرى ذكراً للميزان الذى يوزن به الخير والشر عند الإنسان . فالله تعالى عندما خلق الإنسان خلق معه الخير والشر والميزان الذى توزن به.

---

(١) سورة الرحمن آية ٧ و ٨ .

أعماله . هكذا ظهرت هذه المعتقدات الأولى فى مصر القديمة . وللميزان مكان عندى ، لأنى ولدت فى برج الميزان . فمن الطبيعى إذن يوم سئلت عن مذهبى أن يكون هذا المذهب نابعاً من بذرة نابتة فى أرضى : كالميزان، وما يتصل به : كالتعادلية . ولذلك من رأيى أن المذهب أو الفلسفة إنما هى نبت يظهر فى أرضه ومناخ بلاده . ولقد سأل السائلون : « لماذا لم تظهر عندنا فلسفة » ؟ وجوابى هو أن الفلسفة موجودة عندنا ، مادة تدَرس فى المعاهد والجامعات ، ونحشو بها رؤوسنا ، شأن الكثير مما نأتى به من خارج بلادنا وترتديه مصنوعاً كالملابس الجاهزة... والفلسفة التى نرتديها وُلدت فى بلادها نتيجة وضع حدثَ فى بطن أمة ، فجعلها تفكر وتبلور تفكيرها فى قضية فكرية... فإذا سألنا أنفسنا : أوَلم يحدث فى بطن أمتنا العربية هزة من الأحداث تجعلنا نفكر ونبلور تفكيرنا فى سؤال أو قضية ؟ وعندما نسأل : وكيف نفكر ؟

وأين أدوات التفكير ؟ هنا يأخذنا العجب : فديننا الإسلام يزخر بالدعوة دائماً إلى التفكير ؛ فقد قال رسول الله صلوات الله عليه « لا عبادة كتفكر » ، كما روى عنه أنه قال « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . ولقد أنتج الإسلام فى عصوره الزاهرة من المفكرين والفلاسفة ما يفخر به العقل الإنسانى ، فأين ذهبت اليوم أدوات التفكير عندنا ؟ ربما كان السبب طول أمد الاحتلال الأوربى لبلادنا الإسلامية ، مما حوّل أدوات التفكير عندنا إلى أدوات حفظ وترديد ، لا أدوات فكر وتفكير ، حتى لا تحدث اليقظة الفكرية التى تزلزل احتلالهم . ولقد شاع الجهل والتجمد ، حتى أصاب الدين نفسه ، متمثلاً فى رجاله ، فضعف وجبن عن ملاحقة التقدم . وبعد أن كان فلاسفة الإسلام مثل : ابن رشد ، وابن سينا ، وابن خلدون ، هم الذين ينيرون السبيل لأوروبا فى الجامعات ، أصبح أهل الإسلام هم الذين يذهبون إلى أوروبا لتلقى علومنا بل أيضاً لتقديم رسائلهم فى الإسلام إلى الأساتذة

الأوربيين ليتوجوهم — وهم من شيوخ الدين الإسلامى — بشهاداتهم وألقابهم!.. وانشغل الناس عن جوهر الدين بالاهتمام بمظاهره والحديث السطحى عن الحلال والحرام، كما انشغل العوام والمتحذلقون والمغالون من بعض علماء الدين أنفسهم، إيثاراً للعافية أو عجزاً عن قيادة الجماهير الجاهلة أو الغافلة إلى فهم نواحى العظمة فى الإسلام التى استطاعت أن ترقى بأمة قريش المتخلفة إلى « خير أمة أخرجت للناس » .

ولقد كان علماء الإسلام فى عهد من العهود الزاهرة يدفعون المجتمع إلى التقدم بآرائهم المستنيرة، ولهم «فى رسول الله أسوة حسنة» عندما كان يشجع الناس على حل مشكلاتهم الدنيوية بما يرون فيه الخير لهم؛ من ذلك ما نصح به الناس بأن يتبعوا رأياً له فى تحسين إنتاج النخيل؛ فلما لم ينجح الرأى وأخبروه أن الإنتاج قد ضعف، قال لهم صلوات الله عليه قولته العظيمة: « أنتم أدرى بشئون دنياكم » وهى قولة كان يجب على المسلمين أن يتبعوها فى كل ما يفيد مجتمعهم .

ونحن اليوم على أبواب ســـباق على التقدم والأنفع .. والإسلام هو الداعى إلى التقدم . والنبى العربى ، فيما خرج عن الوحى ، كان يطلق حرية الرأى الآخر فيما يراه صالحاً ونافعاً . وهذا ما حدث أيضاً فى غزوة بدر ، عندما عارض أحدهم رأى النبى برأى آخر كان فيه النفع . وهنا تجلت عظمة النبى عليه الصلاة والسلام ...

إلى أن جاءت عهود ظلام ، وظهر من علماء الدين بدافع من النفـاق مَن روّجوا لنصوص عتيقة تؤدى إلى طغيان الظلام ؛ فى حين تشجع بعض آخر قليل حاول أن يستمد من جوهر الإسلام الصحيح روح التجديد النافع بما يسير بالأمة نحو التقدم .

وبذلك انشطر المجتمع : تجمد فيه البعض وتحرك البعض ، وحدثت البلبلة ، واهتزت العقيدة ، وساعد على اهتزازها غلاة رجال الدين ممن تناسوا قول الله تعالى « قل يا أهل

الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق »[1] ...مع أن الإسلام فى جوهره ضد الغلو والطغيان ، فهو لا يحب الجمود ، لأنه دين حركة واعتدال وتفكير . ونحن فى زمننا الحاضر فى حاجة إلى رجال الدين الذين يبحثون فى شجاعة ، وينادون بما فى الإسلام من دعوة إلى الفكر والاعتدال ، وعدم الغلو والطغيان لعنصر من عناصر الكون . وهى إرادة الله تعالى ، لأن طغيان النص على الجوهر قد يحوّل الإسلام عند الناس السطحيين إلى مجرد غلوّ فى مظاهر التدين أكثر مما هو فى جوهره طريق إلى الاعتدال فيما خلقه الله لنفع الإنسان . والدين هو النور والمصباح : والنور من عند الله ، والمصباح من عند البشر . والمصباح لا يصنع النور ، ولكن يجسده وينشره .. والنور قائم بذاته، وهو الخالد ، والمصباح قائم بمن صنعه وحمله ، ويمكن أن يتغير . والدين يضعف

---

(١) سورة المائدة آية ٧٧

عندما يطغى الاهتمام بالمصباح وتزاويقه فى زجاج يستلفت الأنظار ويحول دون وصول النور فى صفائه إلى أعماق القلب . ولذلك حث الله تعالى على عدم الطغيان والاعتدال والعدل وقال « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »[1] والوسط كما جاء فى بعض التفسيرات هو : « العدل » .

ولعل أهم ما انفرد به الإسلام هو التركيز على وصف رسوله بأنه بشر ... ثم اصطفاه ربه بالوحى الذى هو سبيل اتصاله بالله . ولم يجعله فى حاجة إلى معجزات ، لأن معجزة البشر الحقيقية هى : « العقل » أعجب مخلوقات الله . والبشرية معناها : أن الله تعالى لم ينكر الدنيا . ولذلك كان مجال التفكير والفلسفة التى للإنسان أن يتبحر فيها هى : الدنيا والمجتمع ، وتوجه فكر الناس إلى التفكير فى الخلق ، وليس الخالق ، لأن عقل الإنسان مهما يعظم لن يقدره حق قدره!

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣

فالمجهود الأكبر لهذا العقل البشرى يجب أن يُوجه إلى الإنسان ومجتمعه... وهذا مجال الفلسفة والمذاهب الفلسفية .

ولكل أمة فلسفتها وفلاسفتها.. ولهذا سئلنا: لماذا ليس لنا فلسفة ؟ وأهم من هذا السؤال سؤال آخر أجدى بوضعه الآن وهو: ماهى القضية أو الموضوع الذى يجب أن تدور حوله هذه الفلسفة ؟ . إن الفلسفة القائمة فى العالم اليوم بمذاهبها المختلفة تتفق فى صفة واحدة يطلقون عليها «الفلسفة المادية» . وليس معنى ذلك عندى أنها فلسفة خاصة بالمادة وحدها ، ولكن معناها أوسع ، ولذلك يمكن أن أسميها « الفلسفة الدنيوية » لأنها تقوم على الدنيا وحدها . لأن منبعها ليس كتاباً سماويا . وهو غير ما جاء به الإسلام الذى يذكرنا دائماً أن لنا وجودين : وجود الدنيا ووجود الآخرة ... أى كلما ذكرت الأرض ذكرت معها السماء ... وعلى الإنسان أن « يعمل لدنياه — أى فى أرضه — كأنه يعيش أبداً ، ولآخرته — أى للسماء — كأنه يموت غدا » ... وهكذا إذا كانت لنا فلسفة

فيجب أن تتحرك فى عالمين ، وليس فى عالم واحد . وهذا ما يجعل المسألة أصعب ؛ لأن على الفيلسوف الإسلامى أن يكون ذاتفكير شامل يتسع للوجودين ، فى تعادلية لا تسمح بطغيان تفكير على تفكير فيلغى وجوده . إذ الله الذى أوجد كل موجود لا يريد لوجود أن يلغى وجوداً من مخلوقاته ، لأن كل موجود يجب أن يبقى موجوداً فلا يفنى ولا يطغى ...

والإسلام يعاقب من يلغى وجود غيره كالقاتل ، كما يعاقب من يلغى وجود نفسه كالمنتحر .. لأن الاسلام يتحرك فى عالمين .

والصعوبة التى تقف أمام الفلسفة الإسلامية هى هذا التحرك فى عالمين : أحدهما لغته المنطق والثانى لغته الإيمان . وهو موقف تفكيرى لم يحدث لفلاسفة أوروبا ، لأن تفكيرهم يعيش فى عالم واحد ، ولغة واحدة ، هى لغة المنطق العقلى ، وقدواجه الفيلسوف الإسلامى ابن تيميه هذا الموقف

وعرضه فى كتابه : « درء تعارض العقل والنقل » . كما أن القارىء لابن رشد وابن سينا يشعر بما يبذلانه من جهد للعبور بأمان من خلال السور الذى يفصل بين العالمين ...

وصعوبة أخرى أمام الفيلسوف الإسلامى: هى الحساسية الشديدة للمجتمع الإسلامى تجاه كل تفكير جديد أو تفسير لم ينشأ عليه ، ومن ذلك فكرة بشرية النبي التى لا يتقبلها بعض المسلمين بسهولة ، على الرغم من تكرار هذه البشرية فى القرآن كثيراً ، فهم يحيطون النبي وحياته بالتقديس الذى يقرّبه من الألوهية أكثر مما يقربه من البشرية . وعندما توفى الرسول لم يصدّق الناس أنه مات كما يموت البشر ، إلى أن صاح فيهم العباس بن عبد المطلب قائلا : « إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً ، أحل الحلال وحرّم الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ، وما كان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم » .

وقد جهد النبي فى إقناع المسلمين أنه بشر كلما حاولوا

أن ينسبوا إليه معجزات ، فرسالته ، وهو خاتم الأنبياء أن يقنع الناس بالعقل ، وليس بالخروج على العقل . وهو مرسل في مرحلة أخيرة من مسيرة الإنسان يحترم فيها عقله وبشريته ، ويقنع الناس من خلال احترام النظام الكونى وليس عن طريق الإخلال بالنظام الكونى ، كما ذكر لبعض الأديان .

ولكن الإسلام أرقى من المسلمين . . وقد سبب ذلك له الكثير من المتاعب ، وخاصة عندما يتصرف النبي فى بعض الظروف والمناسبات تصرفات البشر .. فعلى الرغم من صراحته وشجاعته وقوله إنه «حبب إليه النساء» ، فإن من علماء الدين الإسلامى من نفى عنه هذا الحب البشرى ونسب اتصاله بالنساء وزواجه منهن إلى أسباب سياسية ، وأن أولئك النساء لم يكن صغيرات ولا جميلات ، ظناً من هؤلاء العلماء أن تعليلهم هذا هو اللائق بمقام الأنبياء . وانتهج مثل هذا التفكير بنية التجريح بعض الأوروبيين ، ولم يفهم الجميع الحكمة فى أنه بشر .

وهكذا تعثر المسلمون فى فهم فلسفة الإسلام . ولم يسيروا بها إلى مجالات أرقى وأنفع . بل إنهم جنحوا بسوء فهمهم لحكمة الإسلام، وسوء إدراكهم لفلسفة بشرية النبى إلى الغلو فى صفات تدخل بالإسلام إلى دنيا الخرافة والتدجيل — وخاصة عند الشعب البسيط — باسم التقديس والتبجيل ...

كل هذه المعوقات وقفت فى طريق التقدم الإنسانى.. وحالت دون سير الإسلام به فى الطريق الصحيح الذى رسمه الله ورسوله هداية للبشر إلى نوره الإلهى وإلى العمل الصالح لوجوده . . وأخطر ما فى هذه المعوقات تجميد الإسلام .

نتج عن ذلك شل حركة التفكير ، واختفاء الفلسفة عندنا والاكتفاء بالفلسفة الأوروبية المتحركة بكل موجود ، العاملة على نمو كل مولود . وقد رسخت عندنا فكرة فهمت خطأ فوقفت بنا عن كل حركة تفكير وتعبير ، هى القول : « إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان » وهذا صحيح : فالقرآن

لمن يقرؤه بعناية يجده حقاً معجزاً باحتوائه لكل موجود فى الحياة ، وصالح لكل زمان بالتفسير الصالح لهذا الزمان . والفهم الخاطىء للجامدين : أنه صالح بالتفسير القديم فى الزمان الجديد... ولكن الزمان يتغير ، والناس تتغير . والله فى كتابه الكريم تحدث عن التغيير والتغير وقال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1] ... إذن هى دعوة من الله إلى الناس لتغيير ما بأنفسهم من جهل وتأخر إلى الوراء فى الفكر ، ومن قعود عن العمل فى زمن متغير بما فيه فائدتهم من علم وتقدم .. فكيف إذن لايسرى أمره هذا على قرآنه الكريم الذى يوصى بالتغيير النافع ! والتغيير لن يكون فى النص ، فهو من عند الله ، ولكن فى التفسير الذى هو من عندنا .

والعجيب ، ونحن فى زمن تغير فيه كل شىء ، وأصبح

---

(١) سورة الرعد آية ١١ .

الفرد والمجتمع فى صورة جديدة ، والأفكار الإنسانية اتخذت اتجاهات وأوضاعاً مختلفة ، وما يزال القرآن الكريم يعيش بتفسيرات قديمة لشراح ومفسرين من أهل القرون الغابرة ، الذين عاصروا زمناً اختلطت فيه المعرفة الصحيحة بالشائعات والخرافات ، دون أن نجد من علماء الدين اليوم من ينهض بعلم وشجاعة ، فيضع تفسيراً عصرياً يلائم الزمن المعاصر .

والقرآن صالح بالفعل لاحتواء هذا العصر وهذا الزمن ، ولكن العاجز هو التفسير الملائم للزمن الجديد . ولعل السبب هو الجهل والجبن والخوف . والتخلص العقيم من ذلك كله عندنا هو بالاستناد إلى القديم الغابر ، وإبقاء القديم على قدمه . وهذا الاعتقاد الخاطىء بتفسير القرآن على أنه صالح لكل زمان بمعنى أن كل زمان يجب أن يقف أو يكر راجعاً إلى الزمن السابق القديم للمجتمع المعاصر لنزول القرآن ، وهو ما لم يقصده القرآن نفسه ، لأن النص على أن تغير ما بأنفسنا معناه أن الزمن يتغير ، وأننا يجب أن نتغير

التغير الملائم لتغير الزمن نحو الأنفع لأنفسنا .

ولذلك تركنا الله فى جمودنا وعدم تغير أوضاعنا فى التأخر الفكرى والاجتماعى . . لأنه تعالى قد نبهنا إلى أنه لن يغير ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا ...

وبتجمد عالمنا ، قام لسدّ الفراغ جاهلنا .

كل ذلك لا يشجع على بناء فلسفة حرة نافعة عندنا ... هذا بالإضافة إلى عادتنا فى هدم أى فكر أو مشروع فلسفة ، بدلاً من أن نضيف إلى البناء حجراً ، حتى يصبح الحجر فوق الحجر بناء فلسفيا متكاملا .

ولما كان تفكيرنا الفلسفى يجب أن يقوم على التفكير الإسلامى، فإن علماء الدين ومعاهدهم وجمعياتهم سوف يرون هذا الموضوع من اختصاصهم وحدهم، فيواجهون الباحث فيه بالاتهام بالخطأ فى العقيدة .

والفلاسفة من المسلمين وغيرهم الذين اتهموا بالزندقة معروفون . والناتج عن ذلك إما فكر دينى متمسك بوضع

قديم جامد ، أو فكر إسلامى متحرك بتفسير جديد نافع .

فإذا تغير الزمن واقتنع المسلمون بضرورة هذه الفلسفة الإسلامية ، لأن البديل لن يكون إلا التفكير القائم على أسس أخرى للفلسفة ، فإن هذا قد يوقعنا فى مشكلة أخرى : هى الفصل بين الفكر الدينى والفكر الدنيوى المؤسس على الفلسفة الإغريقية ، كما حدث فى أوروبا . ولكن الفكر الإسلامى وهو فكر فلسفى لم يقبل التخلص من الفكر الدينى ليصبح كما يسميه الأوروبيون بإسم « الفكر اللاييك » .

فاجتهد الفلاسفة العرب فى محاولة الانتفاع بالفلسفة الإغريقية دون مساس بجوهر الفلسفة الإسلامية ، ولم يهملوا الحياة فى عالمين .

ولكن الحياة الإنسانية فى عالمين تحتاج إلى التعمق فى فهم خصائص كل حياة ، والحرص على العدل والاعتدال حتى لا يطغى عالم على عالم ، فيشل حركته . وقد حدث هذا الطغيان عندما اجتاحت جيوش الغزو الحضارة العربية . . ولم يكن

الغزاة على قدر من الثقافة ، وكان سلاح سيطرتهم القوة العسكرية المادية . . فلم يفهموا حقيقة الفكر الإسلامى، بل استخدموا الكثير من مفكريه فى تدعيم سلطانهم المادى ، وإضعاف قوة النور والتقـــدم عند المحكومين . فانتشرت الخرافات وشاعت التفسيرات التى تؤدى إلى التجمد . وبذلك وقفت الحضارة الإسلامية ، ووقف الفكر الإسلامى وأغلق باب الاجتهاد ، واضطهد الحكام المسيطرون الفلاسفة المتحررين ، وأغروا بهم العامة والدهماء وشوّهوا تفكيرهم ... وذهب الطغيان بالعصر الذى كان فيه الإسلام يسبق فيه الأمم الأخرى فى العالمين : فى عالم الآخرة بالفلسفة الدينية التى ترفض المعجزة والخرافه والجمود ، وفى عالم الدنيا برفض المادة المسرفة والدعوة إلى الاعتدال : ففى الإسلام منهج مرسوم للعدل الاجتماعى كان فى طريقه بالزكاة إلى التنظيم الفعال لو استمرت الحضارة الإسلامية فى مسيرة التقدم ولم تصادف التأخر بسبب الغزو الخارجى وانحراف الدين.

الداخلى ، وتشويه كل حركة وعمل فيهما دعوة للتقدم .

ولقد كان فى الإسلام منهج عملى واضح ، فيما نسميه اليوم « بناء الإنسان العربى » منه القول : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . وفى الاعتدال والتعادلية علاج اقتصادى وصحى ، أفسدناه للأسف : اقتصادياً بزيادة التموين فى رمضان ، وصحياً بالتخمة للإسراف فى الطعام وأصنافه فى شهر الصوم — كذلك القول : « النظافة من الإيمان » وتركنا القذارة فى مجتمعنا هى الغالبة ، وبذلك عملنا على هدم مجتمعنا .

وإذا كنا لم ننتفع بالإسلام فى شئون اقتصادنا وصحتنا ، وهو مما نمارسه فى حياتنا اليومية ، فكيف نطمع فى إنشاء فلسفة لنا وهى مما لا يخطر على بال أكثرنا ! ...

ومع ذلك فقد يأتى زمن يقرأ فيه المسلمون القرآن بفهم ، ويدركون مافيه من آيات تدعو إلى التفكير ... آيات بعيدة المعنى والمرمى مثل هـــذه الآية العجيبة : « وما من دابة

فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا فى الكتاب من شىء، ثم إلى ربهم يحشرون »[1]. لا شك أن هذه الآية قد تناولتها التفسيرات المختلفة عبر الأجيال. وتفسيرها عندى أن الله الواحد قد خلق الدابة التى فى الأرض، والطائر الذى فى السماء، بنفس الوضع عند أمثالكم أيها البشر: يختار من بينها من يتقدمها فى صفوف الدواب أو الطيور، ويقودها فى مسيرتها نحو الأمان، حتى لا تضل وتتعرض للهلاك. وإذا أردت التشبيه والمقارنة فإن الدابة أو الطير الذى يتقدم ويقود فهو نبى دنياهم. وأحياناً أراقب النمل والنحل فى تجمعاتها، وفى نظام العمل عندها، وأسترسل فى الملاحظة؛ فأرى أن النحل دولة لها ملكة تشرف على شغّالة تجمع العسل من الزهر فهى نظام ملكى. أما النمل فهو نظام اشتراكى يعمل فيه النمل

---

(١) سورة الأنعام آيه: ٣٨.

كله ، لا يعرف ملكة ولا ملكاً فى نظامه ، وهو يخزن طعامه ليستهلكه فى الشتاء ، والله أعلم بحياته التى قد تشبه حياتنا فى نظامها وعاداتها ، فهى كما قال تعالى — أمم أمثالكم — وكأن الخالق الأعظم أراد أن ينبهنا من غفلتنا ويقول لنا : « أفيقوا أيها البشر المغرور ، لقد خلقت أمماً أمثالكم ، فيها الضئيل ، وفيها الضخم ، فيها المرئى لكم ، وفيها المخفى عنكم . كما خلقت عوالم لا تعرفون وجودها إلا بأشعة تصل إليكم بعد بلايين السنوات الضوئية ... وما أرضكم هذه إلا ذرة رمل فوق شاطىء مجهول فى محيطات لا طول لها ولا عرض ... وما يزال علمكم غير صالح لإدراك كنه الله ، : الذى « ليس كمثله شىء » و « ما أوتيتم من العلم إلا قليلا » — ومع ذلك أريد لعلمكم هذا أن ينمو ، ولعقلكم هذا أن يعمل ، حتى لا يطغى الجهل فلا يبقى لوجودكم الأرضى معنى ولا ضرورة ... »

ولذلك أراد الله للفلسفة أن تكون ، لا لتعلم ما لا يمكن أن تعلم ، ولكن لتجعل لحياة الإنسان معنى .

أما بعد ...

فيجب أن نسعى لإيجاد فلسفة عندنا ... وأن تقوم هذه الفلسفة على العالَمَين : عالم الدنيا وعالم الآخرة ...

— أما الدنيا فأداة الفلسفة فيها : العقل والحواس ... وهى ميسورة ، إذا اجتهدنا فى الإحاطة بكل ما أنتجه العقل الإنسانى فى كل تاريخه ، وما وعته الحواس بكل مداركها . فلا نطغى بمعرفة ونهمل معرفة ...

— أما الآخرة فأداة الفلسفة فيها : العقيدة والحدس . وهى الأصعب ، لأن الحدس لم يستقر بعد الاعتراف به بشرياً وعلمياً كوسيلة للمعرفة ، فلا تفاهم به إذن عند العلماء فى الغرب ، وهنا يجب الاعتماد على أنفسنا .

ولكن ...

العقبة الكبرى عندنا هى وضع الحواجز الحديدية

بالنصوص التفسيرية القديمة فى وجه التفكير .. والفلسفة تفكير حر ...

كذلك أمامنا عقبة أخرى هى عدم إثارة قضية تحتاج إلى بحث ... مثل حكم التصوير ... فقد جاء فى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » . ثم قوله : « إن أصحاب هذه الصور يعذّبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم ... » ولقد صار التصوير أحد أعمدة الحضارة فى الفن ورقى الذوق والصناعة والزراعة والتعليم إلخ ... رغم ذلك ما زال بعض المتشددين يرون أنه حرام مستشهدين بالحديثين السابقين ، دون أن يكلفوا أنفسهم البحث عن جوهر الحديثين وعلتهما وما قد يكون وراءهما من ملابسات ! وإذا كان اعتقادهم صحيحاً فلماذا يظهر رجال الدين بالتلاوة والخطابة فى التليفزيون « المرئى » بصورهم المتحركة وأصواتهم المسموعة ؟ فإذا قيل لنشر الدين ؛ عندئذ تنشأ قضية : هل الغاية تبرر

الوسيلة فى الدين ؟ بمعنى أن الإسلام يقبل استخدام وسيلة مكروهة فى سبيل نشره ؟ تساؤلات لا تطرح على الإسلام دين الروح والعقل لولا جمود الجامدين وتشدد المتشددين

وعلى كل حال فإن مثل هذه الأسئلة والقضايا التى قد يطرحها بعض الناس ليس فيها من حرج ، فالتفكير البشرى خلق لكى يتحرك ...

ولكن المطلوب هو أن يتحرك كل ذلك لا فى إطار التجمد والتشدد والعنف بل فى إطار الاعتدال والعدل والرحمة التى هى من صفات الله المتجلية فى خلقه للكون وفى دق الإنسان وفيما شملته هذه الفلسفة التعادلية من وجود الخليقة التى أوجدها الله تعالى : حيث لا يطغى وجود على وجود ...

والله هو الرحمن الرحيم وهو الهادى بنوره إلى سواء السبيل . ؟

خلاصة التعادلية الاسلامية

١ ــ تعادلية الكون ــ للمحافظة على كل ما أوجده الخالق . . فلا طغيان لموجود على موجود . . أوصى الله فى قرآنه بعدم الغلو والإسراف ، وبالعدل ، لعدم الإخلال بالتعادل الضرورى لتوازن عناصر البقاء : من أضخم الكواكب إلى أصغر الخلايا .

٢ ــ الله لا يلغى وجود ما أوجده ، ولكن يغير صفة الوجود ، وما نسميه الموت ليس إلغاء لوجود ، بل تغيير صفته، ونقله من وجود دنيوى إلى وجود أخروى.. وماسمى الناسخ والمنسوخ فى القرآن ليس الإلغاء ، ولكن « وقف التنفيذ » لحكمة وظروف ... لأن من غير المعقول واللائق الزعم بأن الله يغير إرادته كما يفعل البشر العاجز .

٣ ــ الإسلام صالح لكل زمان ومكان : والمقصود أن تفسير القرآن ليس واحداً ، بل إنه متعدد بتعدد الزمان والمكان : فالنص واحد والتفسير متعدد . ولكل زمان دولة ورجال وتفسير . والكون متحرك فى الزمان والمكان ، وكذلك الإسلام . . والإنسان متحرك فى مراحل العمر ، لا جمود أو وقوف فى زمن واحد أو وضع ثابت .

الله وحده الثابت . . وفى الإنسان شىء ثابت وهو المتصل بالله . . أما المتصل بالدنيا فهو القابل للتغيير مثلها .

٤ ــ بشرية الإسلام ــ أكد القرآن على أن نبى الإسلام بشر يوحى إليه . فهو إذن محكوم ببشريته ، إلا فيما نزل به وحى ، فهو محكوم بألوهية التنزيل . ولأن النبى بشر ، وقد أراد الله أن يكون كذلك حتى يخالط البشر فى مجتمعهم ويعرضوا عليه مشكلاتهم وقضايا مجتمعاتهم ، ويشير عليهم بالحلول التى يراها ويتلقى فيها التأييد أو التعديل من

الله .. حتى جاء جانب كبير من القرآن ، متصلا بحياة الإنسان ومجتمعه ، وخاصة المجتمع فى زمانه . ولم يصدّق كثير من الناس أن النبي بشر مثلهم يمكن أن يموت ، إلى أن صاح فيهم العباس قائلا : « إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً : أحل الحلال وحرّم الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ، وماكان راعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم » .

٥ ــ حرية البشر : ترك الإســـلام للإنسان حرية الرأى والتصرف فيما يراه نافعاً له ولمجتمعه ، وتبعاً لحسن استخدام عقله الذى خلقه الله له ، وحثه على استعماله ليدرك به عظمة الخالق فى خلقه ، ويتابع به حركة الحياة فى الدنيا ويبعد عنه الجمود الذى يؤدى إلى ضعف نشاطه الفكرى ، فلا يقوى على تغيير ما بنفسه حتى يساعده الله على ما فيه خيره ، مصداقاً لما قاله تعالى فى قرآنه الكريم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

إذن تغيير المجتمع والإنسان، وبناء الأمة فى وجودها على الأرض ووجودها فى السماء، ورسم الطريق إلى الوجودين هو واجب الفلسفة الإسلامية ؟

القاهرة ١٤٠٣ هـ ت . ا